الزراعة في بلاد الشام في كتابات الرحالة المسلمين ((ناصر خسرو وابن جبير نموذجاً))

د. طه حسين عوض هُديل

كلية التربية عدن – جامعة عدن

المقدمة :

حظي إقليم بلاد الشام في العصر الإسلامي بعناية واهتمام الكثير من المؤرخين والجغرافيين الذين أبهرهم جمال طبيعته، وطيب هوائه، وخصوبة تربته، وغزارة مياهه وأنهاره وغيرها من النعم التي منَّ بها الله تعالى عليه وعلى ساكنيه، وراحوا يدونون كل ما يسمعونه ويشاهدونه، ويصفون كل ما يرونه بأسلوب يتبين لنا من خلاله مدى إعجابهم بما سمعوه، وما رأوه حولهم من جنان وأنهار أبدع الخالق فيها، وزين بها هذه الأرض الطيبة، إلا أن أفضل ما دُون في ذلك من معلومات جاء بها الرحالة المسلمون الذين زاروا هذه البلاد، وشاهدوا بأم أعينهم ما تنعم به هذه الأرض من ثروة زراعية ومائية أخذوا في وصفها لنا وصفاً دقيقاً وافياً شافياً مشوقاً؛ فرسموا لنا صورة عن طبيعة هذه البلاد وزراعتها التي تعد جزءً مهماً من تركيبتها الجغرافية، وقد مثلت مؤلفات هؤلاء الرحالة لنا اليوم مادة علمية مهمة يصعب على أي باحث غض الطرف عنها عند دراسته لتاريخ بلاد الشام، لما فيها من معلومات جاءت عن شاهد عيان رأى بأم عينه ودون بيده، وهي صفة قد لا نجدها عند معظم من كتبوا في التاريخ أو الجغرافيا لاعتماد أكثرهم على غيرهم في الحصول على المعلومة التي قد تكون صادقة، وقد تكون كاذبة، وقد تكون محايدة، وقد يكون مبالغاً فيها.

ومن هنا جاءتني فكرة كتابة هذا البحث الموسوم بـ: ((الزراعة في بلاد الشام في كتابات الرحالة المسلمين " ناصر خسرو وابن جبير نموذجاً "))؛ هادفاً من وراء ذلك إجراء دراسة لكل ما وصلنا عن الرحالة الذين زاروا الشام وتنقلوا بين ربوعها ومدنها وقراها ومزارعها، وتحليل ما دونوه عنها من معلومات، في محاولة للمقارنة بين ما جاؤوا به من أخبار، وهل هناك تناقض في معلوماتهم أو اختلاف؟ قد يكون سببه التغيرات المناخية والبيئية أو السياسية التي أثرت على طبيعة المنطقة الزراعية، لاسيَّما وأن زياراتهم لهذا الإقليم العربي جاءت خلال فترات متباعدة قد تصل إلى قرون من الزمان خلال العصر الإسلامي، إلاّ أن الهدف الرئيس في دراستي هذه هو محاولة البحث عن أبرز الرحالة الذين زاروا مناطق بلاد الشام المختلفة، وفرز ما دونوه عن طبيعتها الزراعية، وأهم مناطقها الخصبة، ومنتجاتها ومحاصيلها الزراعية، ومصادر مياهها، ومنابعها وأنهارها رغبة في التعرف على كل ما يتعلق بالحياة الزراعية في بلاد الشام خلال مدة الدراسة، علماً بأنني سأهتم هنا بمؤلفات أبرز من زار الشام من الرحالة المسلمين، ممن أصبحت كتبهم اليوم تعد من أهم منابع العلم والمعرفة لحقولنا العلمية التي لولا ما جاء به هؤلاء لجهلنا الكثير من المعلومات عن تاريخ بلاد الشام عامة وَ الزراعة فيها خاصة؛ وتجنباً للتطويل ركزت على أثنين فقط من هؤلاء

الرحالة، وهما: الرحالة الفارسي ناصر خسرو، والرحالة الأندلسي ابن جبير[1]، مع الإشارة إلى غيرهما من الرحالة دون الخوض فيما جاؤوا به.

وقد يتساءل البعض: عن الأسباب التي دفعتني إلى الاعتماد في دراستي هذه عن الزراعية في بلاد الشام على ما جاء به هذين الرحالين المسلمين دون غيرهما من الرحالة الذين سوف يتم التعريف بهم لاحقاً، وقد نجد الإجابة على هذا السؤال في المادة العلمية التي مدونا بها؛ إذ أنهم هم الوحيدون الذين انفردوا بالكثير من المعلومات الزراعية عن الشام، وإن كانت بسيطة وغير مركزة، ولكنها تعد غنية مقارنة بغيرها، كما أن المدة الزمنية المتباعدة التي قد تصل إلى المائة وخمسين عاماً – تزيد أو تنقص- تعطي لنا فرصة لإجراء مقارنة بين ما ذكره كل منهم عن الزراعة في بعض المناطق، ومصادر المياه والأنهار وغيرها، وهل هناك اختلاف فيما جاء به كلٌ منهما من معلومات، قد يكون سببها التغيرات المناخية أو السياسية أو الأمنية، لتباعد المدة الزمنية، خاصة وأنهم من أوائل الرحالة الذين دخلوا الشام خلال التاريخ الإسلامي، فضلاً عن كون هذين الرحالين جاؤوا من خارج المنطقة؛ وهذا يعني أن ملاحظاتهم سوف تكون جادة وقوية ودقيقة، لاسيما وأنهم يدخلون الشام لأول مرة، ومن نفس المنطقة التي سوف يشار لها لاحقاً، مما يعطي للموضوع نوعاً من الجدية والتفاوت في المعلومة التي تحتاج إلى دراسة وتحليل لكل ما مدونا به من أخبار، كتبها كلٌ منهم بوجهة نظره، وأسلوبه الخاص.

ولتحقيق الهدف المنشود قمت بتقسيم هذه الدراسة إلى مقدمة وستة مباحث رئيسة وخاتمة، درست في المبحث الأول منها الأهمية التاريخية لكتابات الرحالة المسلمين، وأهمية ما جاؤوا به من معلومات عن الزراعة في بلاد الشام في العصر الإسلامي، وما يعيب عليها. وخصصت المبحث الثاني للتعرف على أشهر الرحالة المسلمين الذين زاروا بلاد الشام في العصر الإسلامي. وتطرقت في المبحث الثالث إلى ما جاء به هؤلاء الرحالة من وصف للزراعة، وأشهر المناطق الزراعية في الشام، وأسباب تطورها. وبحثت في المبحث الرابع عن مصادر المياه التي وجدت في بلاد الشام، وأساليب الحفاظ عليها، وطرق تصريفها. وتناولت في المبحث الخامس أنواع المحاصيل الزراعية التي وجدت في بلاد الشام من خضار وفواكه ونباتات عطرية وطبية وغيرها، ودرست في المبحث السادس العوامل التي أثرت على الزراعة، وكيفية معالجتها كما جاءت في كتابات الرحالة، وأنهيت بحثي هذا بخاتمة استعرضت من خلالها أهم النتائج والاستنتاجات والتوصيات التي توصلت إليها.

المبحث الأول:

الأهمية التاريخية لكتابات الرحالة المسلمين:

مما لا شك فيه أن للسياحة في الأرض فوائد عظيمة وكبيرة في حياتنا؛ لا يغفل عنها إلاّ الجاهل، ولا ينكرها إلا الغافل[2]، وقد حثنا ديننا الإسلامي الحنيف على السفر والترحال لأمور عدة منها التكسب والرزق كما جاء في

قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾[٣]، والاعتبار مما نشاهده أمامنا من مناظر وآثار الأولين وقصص السابقين؛ لما لذلك من أهمية إيمانية أساسها التفكر في خلق الله تعالى، وإبداعاته وصنائعه ومخلوقاته، فضلاً عما نكسبه من فوائد ومشاهدات تذكرنا بالآخرة، وتزيد من علمنا وخبرتنا في هذه الحياة، وقد أورد القرآن الكريم الكثير من الآيات التي تحثنا على ضرورة السياحة والسفر والتفكر في خلق الله تعالى والاعتبار من ذلك، ومنها – على سبيل المثال وليس الحصر–:

قوله تعالى:﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[٤].

وقوله تعالى:﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ ﴾[٥].

وقوله تعالى:﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾[٦].

وقوله تعالى:﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾[٧]، ولذا فإن السياحة في الأرض، والتأمل في عجائب المخلوقات من الأمور التي تزيد العبد معرفة بربه عزَّ وجلَّ وبِعظم خلقه، ويقيناً بقدرته على التنويع في شكل العباد وألوانهم ولغاتهم وعاداتهم وتقاليدهم وأعرافهم، وطبيعة أرضهم وتضاريسها، ومناخهم وغير ذلك من الأمور التي دفعت بعض الرحالة إلى التأمل ثم التدبر في عجيب صنع الله، وعظيم قدرته: ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾[٨]، وقد دفعت مثل تلك الأمور الكثيرة هؤلاء الرحالة والمسافرين إلى نقل ما شهدوه، أو تدوينه ليقرأه غيرهم، ويستفيدوا منه، ويعتبروا مما جاءوا به. لهذا، يتبين لنا أنه كان لما ذُكر من آيات قرآنية أثره في نفوس الكثير من علماء المسلمين الذين رأوا في تلك الآيات وغيرها دافعاً لسفرهم، وهدفاً لرحلاتهم[٩]، فخرجوا إلى البلاد الإسلامية عامة وبلاد الشام خاصة وغيرها وطافوا بها ذهاباً وإياباً متحملين مشاق السفر، ومخاطره، وأعبائه، وتكاليفه، تاركين بلادهم وأهلهم وأموالهم وأملاكهم لكي يتفكروا في خلق الله تعالى، ويعتبروا من غيرهم، ويتعلموا العلوم من مصدرها؛ بعد لقائهم بكبار علماء الأمة ورجالها، مستفيدين من سفرهم هذا العبادة ، والعلم ، والرزق وغيره من فوائد السفر[١٠]، إلا أن ما قام به بعض هؤلاء الرحالة المسلمين من جهدٍ عظيم في تدوين مشاهداتهم أثناء سفرهم، والتعليق على ذلك كان من أفضل ما قدموه لنا اليوم، لاسيما وأن مؤلفاتهم شكلت شاهد عيان للحدث، ومصدراً رئيسياً للمعلومة ، وإن كان في بعضها نوع من المبالغة، وعدم دقة في التعبير عند الكتابة للمعلومة وتدوينها.

ومهما يكن من أمر، فإنه بلغ من أهمية مؤلفات هؤلاء الرحالة أنه أصبح من الصعب على أي باحث أو طالب علم الكتابة في تاريخ أي قطر إسلامي أو عربي دون العودة لمؤلفاتهم، لما فيها من معلومات من المستحيل الاستغناء عنها، لاسيما وأن ما جاءوا به ناتج عن ما شاهدوه بأم أعينهم، مثلما يشير الكثير منهم، وهو ما ميز كتب الرحلات عن غيرها من المؤلفات وأمهات المصادر التي كتبت في التاريخ والجغرافيا والتراث وغيره، ودونت

معتمدة على مؤلفات من سبقهم، أو روايات المعمرين وكبار السن ممن اعتمد عليهم بعض المؤرخين والجغرافيين في الحصول على الكثير من المعلومات التي قد يكون فيها نوع من عدم الصحة والمصداقية والدقة.

إلاّ أن ما يعيب على هؤلاء الرحالة المسلمين، وما جاءوا به من أخبار هو أنهم كانوا عندما يزورون منطقة معينة لا يقيمون فيها سوى يومٍ أو يومين فيدوّنون مشاهداتهم معتمدين على ما يرونه في هذه المدة القصيرة التي قد تكون غير كافية لنقل صورة متكاملة عن الواقع الذي يعيشه سكان هذه المناطق من الناحية الاجتماعية أو الاقتصادية أو المناخية والطبيعية أو الأمنية، مما دفع بعضهم – مثلما ذكرنا سابقاً– إلى اللجوء إلى الأهالي للحصول على ما يحتاجون إليه من معلومات، قد تكون غير دقيقة أو صحيحة أو مبالغ فيها، علماً بأن معظم هؤلاء الرحالة، –بل نقول جلهم– جاؤوا من أقطار بعيده، ولم تكن تربطهم بالبلاد التي زاروها –بما فيها الشام– أي علاقات أو معلومات مسبقة، تجعل مما دونوه في أيام معدودات ناقصاً ، وفي حاجة إلى دراسة وتصحيح بعد مقارنته بما جاء لدى غيرهم من الرحالة، ومع ذلك لا يقلل هذا من أهمية كتابات هؤلاء الرحالة المسلمين وما قدموه من كنوز معرفية عظيمة، وخدمات جليلة للبشرية، تمكنا من خلالها اليوم من التعرف على العديد من عادات الشعوب وتقاليدهم ومعتقداتهم، وأوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية، بما فيها وأهم منتجاتهم الزراعية، وطرق الري، ومصادر المياه وغيرها من الأمور المتعلقة بالحياة الزراعية وتحديداً في بلاد الشام – موضوع بحثنا – ، لذلك قبل الخوض في دراسة ما وصلنا إليه من معلومات عن الزراعة في بلاد الشام في كتابات الرحالة المسلمين في العصر الإسلامي لا بد أولاً من التعرف على أشهر هؤلاء الرحالة، وما دونوه من معلومات عن حياة بلاد الشام العامة بما فيها الحياة الزراعية، وما يتعلق بها.

المبحث الثاني:

أشهر الرحالة المسلمين الذين زاروا بلاد الشام في العصر الإسلامي:

مُيزت بلاد الشام التي تضم اليوم كلاً من سوريا والأردن وفلسطين ولبنان[١١] بموقعها الحساس في قلب البلاد الإسلامية، وطبيعتها الخلابة التي أسرت قلوب الهاوين والمحبين للجمال، وقد كان لذلك الموقع دوره في أن تتجه إليه أنظار الجغرافيين والرحالة من علماء المسلمين الذين رأوا فيه مهبطاً لمعظم الديانات السماوية، وموطناً للأنبياء والرسل، وموقعاً للمقدسات الإسلامية، ومشاهد الصحابة والتابعين الذين دفن معظمهم في تربته[١٢]، وقِبلة لكبار علماء الأمة، ممن أقاموا على أراضيه[١٣]، لذلك صارت مسألة التفكير في قيام بعضهم برحلة إلى البلاد الإسلامية لا بد أن تدخل فيها بعض مناطق الشام، وقد كان ذلك الأمر سبباً في أن نتعرف اليوم على العديد من الأمور الخفية عن تلك الأرض الطيبة، والمعلومات التي كنا نجهلها قبل اطلاعنا على هذه الكتب، ومن هنا توالت الرحلات السياحية والعلمية والدينية وغيرها على أراضي بلاد الشام خلال مدة الدراسة؛ وتحديداً بين القرنيين

الخامس والسادس الهجريين، عاشت الشام جزءاً كبيراً منها في صراع مرير مع القوى الصليبية التي حاولت أن تسيطر على مقدساتها التي تعد جزءً مهماً من الهوية الشامية، ومما لا شك فيه أنه كان لأوقات الاضطرابات والفوضى أثرها على طبيعة البلاد الزراعية التي عانت من ويلات الحروب التي انعكست على الزراعة، وكانت سبباً في تدمير بعضها، بعد تعثر القيام بالأراضي وزراعتها بسبب الحروب.

وعلى أية حال، فإنه من خلال دراستنا لأحداث هذه الحقبة الإسلامية من تاريخ بلاد الشام (من منتصف القرن الخامس إلى الثلث الأخير من القرن السادس الهجريين)، وهي حقبة تعرضت فيها بلاد الشام لغزوات متكررة من قبل الصليبيين؛ وجدنا أن هناك عدد من الرحالة المسلمين الذين زاروا أرض الشام، وأقاموا فيها لفترات مختلفة، أو مروا بها دون الإقامة فيها، وقد حاولنا حصر هؤلاء الرحالة للتعرف على ما دونوه من ملاحظات عن الشام وأهلها ومقدراتها ومصادر ثرواتها الزراعية، ومياهها وغيرها في أثناء إقامتهم فيها، ولاحظنا أن عدد هؤلاء الرحالة كانوا تقريباً خمسة، قاموا برحلاتهم خلال فترات متفاوتة ومتباعدة، وقد جاء جلهم من بلاد إسلامية مختلفة، فمنهم من جاء من المشرق، ومنهم ومن جاء من المغرب، ومنهم من كان من سكان الشام نفسها، للتعرف على طبيعة هذه الأرض، ومن أشهر هؤلاء الرحالة المسلمين بحسب سنة الرحلة: الرحالة الفارسي ناصر خسرو علوي (توفي بعد سنة ٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م)، الذي قام برحلته إلى بلاد الشام قادماً من بلاده (فارس) في شهر رجب سنة ٤٣٨هـ / يناير ١٠٤٧م، وكانت مدينة منبج الواقعة شمال شرق الشام أول بلاد الشام[١٤] التي دخلها ثم سار منها في رحلته واصفاً مدن الشام وقراها وأوديتها وأنهارها وعيونها وزراعتها وغير ذلك من الأمور التي استفدنا منها في بحثنا هذا[١٥]، وقد جاءت رحلته هذه في أوضاع مضطربة كان يعاني منها الجزء الشرقي من الدولة الإسلامية بما فيه الشام، بسبب الضعف الذي دب في جسم الخلافة العباسية، وأدى إلى انقسامها إلى دويلات، يكبر بعضها على حساب بعض، أمام أعين الخليفة العباسي القائم بأمر الله أبو جعفر عبد الله بن القادر (٤٢٢ – ٤٦٧هـ) الذي لم يعد له من تلك الدويلات سوى الدعوة له في الخطبة[١٦].

ويشير الدكتور محمد مؤنس عوض[١٧] إلى عدد آخر من الرحالة المسلمين الذين قدموا إلى بلاد الشام بعد الرحالة الفارسي ناصر خسرو، في إطار رحلاتهم إلى البلاد الإسلامية وتحديداً في حقبة الحروب الصليبية التي عانت منها الشام الكثير من الويلات والحروب التي انعكست على أوضاع أهالي المنطقة الاقتصادية والاجتماعية، بعد أن تدهورت الزراعة إثر تدهور الأوضاع هناك، ومن أشهر هؤلاء الرحالة الذين ذكرهم خلال تلك المرحلة: عبد الكريم بن محمد بن المنصور التميمي المروزي السمعاني (ت: ٥٦٢هـ/ ١١٦٧م) المولود في مدينة مرو في إقليم خراسان، وقد قام برحلته من هناك إلى العديد من مدن المشرق من أجل أن يتلقى العلم على أيدي العلماء والشيوخ ومن بينها بلاد الشام، وقدم وصفاً دقيقاً للأوضاع أثناء الوجود الصليبي بها، وعلى الرغم مما قدمه من أخبار عن رحلته

إلى الشام إلا أن أكثرها اقتصر على الجانب السياسي والديني، مع إشارات بسيطة عن الجوانب الاقتصادية والزراعية، وقد وصف كل ذلك في كتابه الأنساب[١٨].

والرحالة الشامي أسامة بن منقذ الشيزري[١٩] (ت: ٥٨٢هـ/ ١١٨٨م) الذي مدنا بصور مختلفة للحياة في بلاد الشام في أثناء الحروب الصليبية، وذلك إثر رحلته التي زار فيها العديد من مناطق ومدن الشام، وصولاً إلى بيت المقدس والحرمين الشريفين وغيرها من العواصم الإسلامية، وقد وصف كل ذلك في كتابه: " الاعتبار"، الذي قدم فيه وصفاً مفصلاً عن رحلاته إلى بلاد الشام وغيرها[٢٠].

والرحالة أبو الحسن علي بن أبي بكر بن علي الهروي الموصلي (ت: ٦١١هـ/ ١٢١٥م)، وقد عرف بالسائح لكثرة رحلاته[٢١]، يقول عنه ابن خلكان[٢٢]: ((طاف البلاد وأكثر من الزيارات، وكاد يطبق الأرض بالدوران، فإنه لم يترك براً ولا بحراً ولا سهلاً ولا جبلاً من الأماكن التي يمكن قصدها ورؤيتها إلا رآه، ولم يصل إلى موضع إلا كتب خطه في حائطه، ولقد شاهدت ذلك في البلاد التي رأيتها مع كثرتها))، وقد زار الهروي العديد من البلاد الإسلامية منها بلاد الشام ومصر والمغرب وبلاد الروم والعراق ومكة المكرمة والمدينة المنورة واليمن وبلاد فارس، ووصف ذلك في كتابه: " الإشارات إلى معرفة الزيارات"، وعلى الرغم مما قدمه الهروي من أخبار عن زيارته لبلاد الشام، إلا أن تلك الأخبار اقتصرت على النواحي السياسية، والحربية، والسياحة العلاجية، والدينية[٢٣]، دون التعمق في الجوانب الأخرى ومنها الاقتصادية والزراعية – موضوع بحثنا –.

إلا أن أكثر الرحالة المسلمين الذين قدموا لنا وصفاً وإن كان بسيطاً وغير مقصود عن الزراعة في بلاد الشام، وأهم المناطق الزراعية، ومصادر المياه فيها، وأنواع المحاصيل الزراعية وغير ذلك من أمور الزراعة خلال الحروب الصليبية هو الرحالة الأندلسي أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني[٢٤] البلنسي الشاطبي[٢٥] (ت: ٦١٤هـ/ ١٢١٧م)، الذي دخل إلى بلاد الشام سنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م من الجهة الشرقية بعد مروره بنهر الفرات، وتحديداً من مدينة منبج[٢٦]، وهي الجهة التي دخل منها الرحالة الفارسي ناصر خسرو[٢٧]، وقد وصف ابن جبير تفاصيل رحلته في كتابه ((تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار))، والمعروف بـ((رحلة ابن جبير))[٢٨]، وهو ما دفعنا إلى التركيز على ما جاء به من أخبار الشام في دراستنا هذه، لما تميز به عن غيره من الرحالة المسلمين الذين زاروا بلاد الشام في مدة الحروب الصليبية، أمثال السمعاني، وأسامة بن منقذ، والهروي.

وقد شكلت مؤلفات الرحالة المسلمين الذين تم ذكرهم مادة غنية ودسمة يمكن العودة إليها عند الكتابة في تاريخ البلاد التي زاروها لاسيما بلاد الشام، مع أن معظم الأخبار والملاحظات التي دونوها عن الشام تكاد تنصب في اتجاه معين يغلب عليه الجانب الوصفي لما شاهدوه من أوضاع الناس هناك خلال الحروب الصليبية التي شغلت أخبارها هؤلاء الرحالة، وجعلتهم يتجنبون الإشارة للجانب الزراعي، أو يتحدثون عنه؛ ولكن بنوع من الاقتضاب، وهو ما دفعنا إلى اختيار الرحالة ابن جبير عن غيره من الرحالة الذين تم ذكرهم سابقاً مثل السمعاني ، وأسامة بن

منقذ ، والهروي، الذين زاروا الشام في أوقات متقاربة خلال الحروب الصليبية، لاسيما وأن المادة التي جاء بها ابن جبير عن الزراعة في الشام رغم قلتها؛ إلا أنها مهمة يمكن من خلالها تكوين صورة عن الحياة الزراعية في الشام في العصر الإسلامي، إضافة إلى ما جاء به الرحالة الفارسي ناصر خسرو.

إن من الأمور المهمة التي من الممكن أن نلاحظها في مؤلفات الرحالة الذين تم انتقاؤهم لدراستنا هذه (ناصر خسرو وابن جبير) هو أنهما على الرغم مما قدَّماه من معلومات مهمة عن الشام إلاّ أنهما لا يشيرا إلى الجانب الزراعي فيها بشكل واضح وصريح، بهدف الحديث عن الزراعة أو التطور الزراعي أو تدهوره، أو أهم المنتجات الزراعية ومناطق زراعتها، ومصادر ريها؛ وإنما كان حديثهما عن الزراعة جانبي وغير أساسي، لم يخرج عن الإطار الوصفي الملحق لوصفهما للمناطق التي زاروها، مع عدم تعمقهما في الحديث عن وسائل الفلاحة، وطرقها، ومواسمها، وأساليبها، وكيفية استصلاح الأراضي وإحيائها، ووسائل حرثها وغيرها من الأمور التي يتبعها الفلاحون عند التعامل مع الأراضي الزراعية، وهي من الأمور التي غفل عنها هؤلاء الرحالة، لما سببوه من نقص في المعلومات المتعلقة بالنواحي الزراعية التي لا يمكن استكمالها إلا بالعودة إلى كتب التاريخ والجغرافيا والفلك والزراعة وغيرها التي دونت لنفس هذه المدة الزمنية موضوع الدراسة، ومع ذلك سنحاول دراسة الحياة الزراعية في بلاد الشام في العصر الإسلامي (من منتصف القرن الخامس إلى الثلث الأخير من القرن السادس الهجريين) من خلال ما مدنا به الرحالان المذكوران من معلومات، وإن كانت بسيطة.

المبحث الثالث:

وصف الرحالة المسلمين للزراعة في بلاد الشام:

من الطبيعي أن ينبهر الداخل إلى أي بلاد مثل الشام بطبيعتها الخلابة وخضرتها وبساتينها، ووفرة مياهها، وخصوبة تربتها، وتنوع منتجاتها الزراعية[٢٩]، كما أن من المعتاد أن يقوم هذا الزائر بالوصف لما رآه لغيره؛ متحدثاً عن أجمل ما لفت نظره، وقد يصل الأمر به إلى القيام بتدوين ما شاهده، أو التغني بما رآه بكتابة الشعر أو غير ذلك من الأمور، وعلى ما يبدو أن هذه الأوصاف لطبيعة الشام هي التي جعلت الرحالة المسلمين – الذين تم ذكرهم سابقاً – يصفون ما شاهدوه في بعض المناطق التي مروا بها، على الرغم من أن أبرز بواعث رحلاتهم هي السياحة، والزيارة للمقدسات الإسلامية، والالتقاء بكبار علمائها، والتعرف على عادات وتقاليد الشعوب الإسلامية، ووصف معاملاتهم الاجتماعية والتجارية وغير ذلك، وقد أعطت لنا كتابات هؤلاء الرحالة صورة عن الزراعة في بلاد الشام من خلال الوصف الذي قدموه لها، مع اختلاف حديثهم عن بعض تلك المناطق، مما يجعلنا أكثر اصراراً على دراسة ما جاء به كلٌ منهم بالتفصيل، لانطلاق رحلاتهما إلى الشام من الشمال الشرقي، مع الإشارة إلى نقاط الالتقاء، ونقاط الاختلاف في ذلك.

١- الزراعة والمناطق الزراعية الشامية عند الرحالة ناصر خسرو:

كان للرحالة ناصر خسرو السبق في المعلومات القيمة والجديدة، التي مدنا بها عن الزراعة، والمناطق الزراعية في بلاد الشام، وإن كانت شحيحة، إذ تمكنا من خلال تتبع سير خط رحلته أن نكون صورة عن أشهر المناطق الزراعية في هذه المنطقة، ومصادر مياهها، وأهم المحاصيل التي تنتجها وغير ذلك من الأمور المتعلقة بالجانب الزراعي، مستنتجين أن معظم أهالي بلاد الشام اعتمدوا على فلاحة الأرض في معيشتهم كمصدر من مصادر الدخل اليومي، ويدل الوصف الذي قدمه لنا ناصر خسرو ومن تبعه من الرحالة، أن أهالي الشام اهتموا بالزراعة والمحاصيل الزراعية، وأولوها جل اهتمامهم ووقتهم ومالهم، لما كانت تدرُّه عليهم من أموال، ناتجة عن بيعها في أسواقهم، وتصدير الفائض منها إلى البلاد المجاورة لهم، والبعيدة عنهم أيضاً[٣٠]، وقد اختلفت تلك المناطق في طبيعتها، وتنوعت في زراعتها ومنتجاتها، ومصادر مياهها، وهو ما أشار إليه هذا الرحالة.

وعلى أية حال، فقد كانت **بلدة منبج** الواقعة في الشمال الشرقي من بلاد الشام هي أول المدن التي زارها ناصر خسرو[٣١]، وقال عنها إنها أول مدن الشام، وإن طقسها معتدل جداً، وإنه لم يكن خارجها أو حولها أي عمارات، دون أن يعلق على ذلك، وهو ما ناقضه ابن جبير الذي دخل من نفس المدينة إلى الشام بعد مدة من الزمن، وقال عكس ذلك[٣٢]، ولا نعتقد أن ناصر خسرو قد تغاضى أو تناسى أو غفل أو غض الطرف عن الحديث عن الحياة الزراعية في منبج، لاسيما وأنه عند دخوله إلى معرة النعمان[٣٣]، تكلم عن أسواقها ووصفها بالعامرة، لما شاهده من محاصيل زراعية، كانت تنتجها مزارع الأهالي هناك، مشيراً إلى أن ذلك يعود لوفرة آبارها التي كانت تتغذى من مياه الأمطار[٣٤].

إلا أن أكثر مدن الشام اهتماماً بالحياة الزراعية كما أخبرنا ناصر خسرو كانت مدينة طرابلس[٣٥]، التي احتوت مزارعها وبساتينها المحيطة بها على أنواع المحاصيل الزراعية من فواكه وغيرها، ويشير هذا الرحالة إلى أنه لم يشاهد مثلها إلا في بلاد العجم، بل ويصفها بأنها أحسن منها، وقد عبر عن ذلك بقوله: ((وحول المدينة المزارع والبساتين... وقد رأيت بطرابلس ما رأيت في بلاد العجم من الأطعمة والفواكه، بل وأحسن منه مائة مرة))[٣٦].

ومهما يكن الأمر، فقد أعطى لنا ناصر خسرو معلومات أخرى قيمة عن مناطق زراعية أخرى كان قد مر بها في رحلته داخل الشام، مثل مدينة حيفا[٣٧] التي وصفها بأنها كانت محاطة بالأشجار الكثيفة والنخيل، على الرغم من وقوعها على ساحل البحر[٣٨]، ومدينة قيسارية[٣٩] التي وصفها بالجمال لطبيعتها الخلابة، ووفرة مياه العيون الجارية فيها، وكثرة النخيل وأشجار الفواكه المختلفة المحيطة بها[٤٠]، وقد بلغ من اهتمام أهل الشام بالزراعة إلى أن تنتشر الأشجار المثمرة على الطرق التي تربط مناطقهم المتباعدة، حيث أنه منذ خروجه (أي ناصر خسرو) من مدينة قيسارية حتى وصوله إلى مدينة الرملة[٤١] مروراً بمدينة كفر سابا أو كفر سلام – مثلما أطلق عليها– وغيرها كانت مزارع التين والزيتون منتشرة في السهل والجبل[٤٢]، إلا أن أكثر المناطق الزراعية التي مر بها هذا الرحالة في الشام

كانت بيت المقدس التي قال عنها: ((ورساتيق بيت المقدس جبلية كلها، والزراعة وأشجار الزيتون والتين وغيرها تنبت كلها بغير ماء، والخيرات بها كثيرة ورخيصة)) (٤٣)، ورخص تلك المحاصيل الزراعية دليل على انتشار زراعتها من قبل أهالي هذه المدينة، في حين انتشرت البساتين في القرى المحيطة ببيت المقدس حيث توجد منابع المياه من العيون والأنهار، لاسيما في القرى الواقعة في جنوب المدينة(٤٤)، ويشير أيضاً ناصر خسرو إلى انتشار البساتين والحدائق والجنان، في القرى الممتدة من بيت المقدس إلى مدينة الخليل في الجنوب، وتنوع محاصيلها الزراعية، وقد بلغ الأمر بأهالي هذه القرى المنتشرة بين المدينتين إلى أن يطلقوا على عدد من قراهم تلك اسم الفراديس، لجمالها ووفرة مياه أعينها، ولكثرة الحدائق والبساتين الموجودة حولها، وتنوع منتجات محاصيلها الزراعية، ولم تكن مدينة الخليل عندما شاهدها هذا الرحالة بأقل جمال ولا خضرة ولا خيراً من تلك القرى، لما وجده فيها من مزارع الزيتون والقمح والشعير وغيره من المحاصيل(٤٥).

خلاصة القول، إن الرحالة ناصر خسرو قدم لنا معلومات قيمة ومفيدة عن رحلته إلى بعض مدن وقرى بلاد الشام على الرغم من اختصاره للكثير من الأخبار المتعلقة بالجانب الزراعي التي كنا نتمنى أن يستوفيها لنا حتى نتمكن من دراسة الأوضاع الزراعية في الشام من خلال كتابه سفر نامة، وبقية كتب الرحلات التي دون مؤلفوها أخبار رحلاتهم بشكل مختصر أيضاً، ومع ما مدنا به ناصر خسرو من إشارات يمكن أن تكون لنا ضوءً نهتدي به لدراسة الأوضاع الزراعية لبلاد الشام في العصر الإسلامي، لابد أيضاً من دراسة ما جاء به الرحالة الأندلسي ابن جبير من أخبار رحلته لاستكمال دراسة بحثنا هذا.

٢- الزراعة والمناطق الزراعية في الشام عند الرحالة ابن جبير:

جاءت رحلة ابن جبير بعد مرور ما يقارب من مائة وخمسين عاماً من رحلة ناصر خسرو، وكانت مدينة منبج في الشمال الشرقي من الشام هي أول المدن التي دخل منها ابن جبير إلى الأراضي الشامية، وقد وصفها بأنها من أكثر مناطق الشام زراعة، وخصوبة في التربة، ووفرة في المياه، وصحة في الهواء، وقد عبر عن ذلك بقوله عنها: ((بلدة فسيحة الأرجاء، صحيحة الهواء،... جوها صقيل ومجتلاها جميل، ونسيمها أرج النشر عليل، نهارها يندى ظله، وليلها كما قيل فيه: سحر كله؛ تحف بغربيها وبشرقيها بساتين ملتفة الأشجار، مختلفة الثمار، والماء يطرد فيها، ويتخلل جميع نواحيها)) (٤٦).

ويؤكد ابن جبير أيضاً في وصفه لمنبج أن البساتين الزراعية كانت محيطة بها، حتى أنه أشار إلى نزوله بأحدها(٤٧)، ومن العجيب أن الرحالة ناصر خسرو الذي كان قد دخل سابقاً من نفس المدينة لم يعط لنا أي إشارة إلى ذلك، وكل ما قاله عنها أن الطقس فيها معتدل جداً، مشيراً إلى أنه لم يكن خارج المدينة أي عمارات(٤٨)، ولا نجد تفسيراً لذلك سوى أن المنطقة شهدت انتعاشاً زراعياً قوياً في الثلث الأخير من القرن السادس الهجري وهي المدة التي زار فيها ابن جبير منبج، في حين لم يشر ناصر خسرو إلى هذه المعلومة، وهذا دليل على عدم ملاحظته

لذلك، أو ربما عدم دخوله إلى هذه المدينة، ووصفها من خلال حديث الغير له، أو تعرض المنطقة لجدب وجفاف أثر على زراعتها، مع عدم ذكره لهذا الأمر.

وفي طريقه إلى حلب يصف لنا ابن جبير طبيعة بعض البلدات الزراعية التي مر بها مثل بلدة بزاعة[٤٩] التي يصفها بقوله[٥٠]: ((بقعة طيبة الثرى، واسعة الذرى، تصغر عن المدن، وتكبر عن القرى، ولهذه البلدة عين معينة، يخترق ماؤها بسيط بطحاء ترف بساتينها خضرة ونضارة، وتريك برونقها الأنيق حسن الحضارة))، وعند وصوله إلى مدينة حلب أخذ ابن جبير في الحديث عنها، واصفاً ما شاهده من عجيب ما بها من خضرة وجمال، ومن ظريف ما وصفه؛ أنه بلغ بالراغب في أكل بعض فواكهها مثل العنب إلى أن لا يتعب نفسهُ بالخروج إلى بساتينها ليتذوق أو ليأكل، ولكن يمكنه أن يمد يده إلى نافذة مسكنه ليأخذ ما طاب له من عناقيد هذه الفاكهة المتدلية من هذه النوافذ، وقد يكون ما جاء به ابن جبير هو وصف للحدائق والبساتين المحيطة بالجانب الغربي من المدرسة الحنفية التابعة للجامع المكرم في حلب، ولكن مع هذا وذاك، فهو يعبر عن الطبيعة العامة للمنطقة، لاسيما وأنه يشير في حديثه عن حلب إلى حسن مزارعها وبساتينها التي تمتد على طول النهر الصغير الذي يمر بها[٥١]، في حين لا يعطينا ناصر خسرو الذي كان قد دخل حلب قبل ذلك أي معلومات عن طبيعتها الزراعية، واكتفى بوصفها أنها جميلة[٥٢]، دون أن يحدد نوعية هذا الجمال، هل هو في خضرة أرضها أو في جمال بيوتها وأسواقها، وهو ما لم يفسره لنا هذا الرحالة.

وقد بلغ اهتمام أهالي الشام بالزراعة إلى درجة حرثهم لمساحات واسعة من الأراضي المحيطة بقراهم على مد النظر، تحسباً – على ما يبدو – لسقوط الأمطار، وهو ما يشير إليه ابن جبير عند حديثه عن القرى العامرة المحيطة ببلدة قنسرين[٥٣]، التي كانت لها محارث عظيمة مد البصر عرضاً وطولاً[٥٤]، وهو ما لم يذكره الرحالة ناصر خسرو الذي مر على ذكر قرية قنسرين مرور الكريم دون أي وصف لزراعتها ولزراعة القرى المحيطة بها[٥٥] مثلما فعل ابن جبير عند حديثه عنها.

أما معرة النعمان التي كان قد زارها سابقاً ناصر خسرو، وتحدث عنها واصفاً ما كانت تنتجه مزارعها من خيرات، لوفرة آبارها التي كانت تتغذى من مياه الأمطار[٥٦]، فقد وصفها أيضاً ابن جبير بأنها من أخصب بلاد الله وأكثرها أرزاقاً، لكثرة بساتينها المنتشرة في جميع قراها التي يسير فيها الزائر لمدة يومين دون كلل أو ملل – على ما يبدو –، وقد يبالغ ابن جبير عندما يتحدث عن هذه البلدة بأنها كلها سواد لانتشار شجر الزيتون الأسود، وشجر التين والفستق وأنواع الفواكه في بساتينها[٥٧]، وهو ما يتوافق مع ما جاء به من سبقه من الرحالة. إلا أن أبدع الصور التي يمدنا بها ابن جبير عن الزراعة في بلاد الشام فيقدمها لمدينة حماه[٥٨] التي يصفها بأنها من أشهر البلدان، لأصالتها وقدمها، ولما بها من مياه كان مصدرها أحد فروع نهر العاصي[٥٩]، الذي كان سبباً في خصوبة تربتها وانتشار البساتين فيها التي تتدلى أغصانها عليه، هذا في الوقت الذي انتشرت فيها مساحات زراعية واسعة

ومحارث يلاحظها الخارج من هذه المدينة ضمت بساتين لأشجار العنب، مما يولد الانشراح والسعادة في نفس الناظر إليها، وتمتد تلك البساتين إلى شاطئ نهر العاصي الذي تحفه المزارع الجميلة للناظر من كل مكان[٦٠].

وعلى أية حال، فإنه يتبين من خلال ما قدمه لنا ابن جبير أن الزراعة كانت هي العمود الفقري لسكان بلاد الشام، إذ اعتمد جلهم عليها في حياتهم ومعيشتهم، هذا ليس على مستوى القرى والمناطق الريفية التي مر بها؛ بل وحتى على مستوى المدن الكبرى التي تنتشر فيها التجارة، والمحلات التجارية، وأنواع الصناعات والحرف المختلفة وغيرها، وأيضاً القرى المتصلة بها، ومما يؤكد ذلك هو الوصف الأدبي[٦١] الدقيق الذي قدمه لنا ابن جبير عن مدينة دمشق وغوطتها التي كانت تعد من أكبر مدن الشام في ذلك الحين، وأكثرها تطوراً وسكاناً، حيث شكلت الزراعة جانباً مهماً في حياة أهالي هذه المدينة، لعمل أكثرهم فيها، والدليل على اهتمامهم وأهالي المناطق والقرى المحيطة بها بالزراعة ما قدمه ابن جبير من تعليقات عن خط سير رحلته إلى دمشق، واصفاً الطريق التي مر بها بالحسن والجمال، لما لفت انتباهه هناك من بساتين تسر نظر القادم إلى هذه المدينة[٦٢]، وقد وصف المدينة نفسها، وما بها من بساتين وحدائق ومياه، قائلاً عنها أنها: " ((جنة المشرق... وهي خاتمة بلاد الإسلام التي استقريناها، وعروس المدن التي اجتليناها، قد تحلت بأزاهير الرياحين، وتجلت في حلل سندسية من البساتين، وحلت من موضوع الحسن بالمكان المكين، وتزينت في منصتها أجمل تزيين،... قد سمت أرضها كثرة الماء حتى اشتاقت الظماء،... قد أحدقت البساتين بها إحداق الهالة بالقمر، واكتنفتها اكتناف الكمامة للزهر، وامتدت بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد البصر، فكل موضع لحظته بجهاتها الأربع نضرته اليانعة قيد النظر، ولله صدق القائلين عنها: إن كانت الجنة في الأرض فدمشق لاشك فيها، وإن كانت في السماء فهي بحيث تسامتها وتحاذيها)) "[٦٣].

وقد أسهمت الأوقاف التي انتشرت في ذلك الحين في مدينة دمشق على انتشار الزراعة والأراضي الزراعية في داخلها وحولها، وقد بلغ الأمر ببعض كبار شخصيات المجتمع في الشام من الأمراء والوزراء ونسائهم والتجار والعلماء والميسورين إلى أن يعمروا المنشآت الوقفية من مدارس ومساجد ومارستانات وأربطة وزوايا وغيرها، ثم يوقفوا عليها من خير أموالهم وأملاكهم ومزارعهم وبساتينهم وأراضيهم ومطاحنهم[٦٤]، أو يعملوا – على ما يبدو – على إعادة استصلاح بعض المساحات والأراضي، ويعيدوا زراعتها لتكون أوقافاً على ما عمروه من المنشآت المذكورة، مما ساعد على تطور الحياة الزراعية، وزيادة الاهتمام بها وبالعاملين فيها الذين كانوا يحصلون على رواتبهم من ريع هذه المزارع بعد بيع محاصيلها، وعلى الرغم مما قدمه ابن جبير من وصف للحياة الزراعية في مدينة دمشق وربوتها وما حولها من قرى ضمت بساتين ومزارع تنوعت منتجاتها، إلا أن هناك قرى كانت تابعة لدمشق تدخل ضمن ربوتها المباركة مثلما أطلق عليها هذا الرحالة، ركز عليها ابن جبير وأسهب في وصف طبيعتها الزراعية بعد أن أبهره جمالها، مثل قرية النيرب القريبة من دمشق، التي يقول إنه غطتها البساتين، لكثافة شجرها، حتى أصبح لا

يرى منها إلا ما ارتفع إلى السماء من مبانيها، وكذلك الأمر بالنسبة لقرية المزة التي قال عنها بأنها من أحسن القرى، وموضع يعرف بالقصر كان منتزهاً للملوك، ضم بساتين عظيمة، واستراحات يتجه إليها ملاكها للراحة والاستجمام لاسيما في الليل للاستمتاع بهوائها العليل، وغيرها من المواضع(٦٥).

ومن الملاحظ أنه كان لوفرة المياه، وخصوبة التربة في تلك القرى في ريف دمشق الدور الأكبر فيما شهدته من تطور زراعي كبير، وهو ما كان موجوداً أيضاً في جبل لبنان الذي وصفه ابن جبير بأنه من أخصب جبال الدنيا، لما فيه من مياه، ومزارع تنتج أنواع الفواكه، التي على ما يبدو أنها كانت مصدراً لتموين باقي مناطق ومدن بلاد الشام وغيرها(٦٦).

لقد كانت مدينتي عكا وصور هي أخر المدن التي وصفها لنا ابن جبير لاسيما وأنهما خاصة عكا كانت هي أخر عهده ببلاد الشام، فمنها انطلق عائداً إلى بلاده، وقد وصفهما أنه لا بساتين حولهما، وإنما هما في بسيط من الأرض أفيح متصل بسيف البحر، ومن الملاحظ أن ملوحة تربة البحر هي التي منعت أهالي هاتين المدينتين من الاهتمام بالزراعة، ومع هذا وذاك، أهتم أهالي المناطق الريفية والضياع المعمورة المحيطة بالمدينتين الساحليتين بفلاحة الأرض وزراعتها لخصوبة تربتها، وقابليتها للزراعة، ووفرة مياهها المحيطة بها، فكانت هي مصدر تموين مدينتي عكا(٦٧) وصور(٦٨) بالخضار والفواكه التي كانت تجلب من بساتينها(٦٩)، وهو ما يعطينا فكرة عن أهمية تلك البساتين بالنسبة لعكا وصور في الحصول على حاجتهما من المزروعات.

ومهما يكن الأمر، فقد جاءت رحلة ابن جبير في ظروف صعبة كانت تعيشها الشام بسبب الغزو الصليبي لأراضيها، وقد وجدت، أن تلك الظروف التي بليت بها بعض أراضي الشام أثرت بشكل ملحوظ على الحياة الزراعية، وعلى الوضع المعيشي للفلاحين من أهل الشام، ومما يؤكد ذلك ما أخبرنا به ابن جبير عن أهالي منطقة بانياس(٧٠) ذات الأراضي الزراعية والمحارث التي كانت للمسلمين، وأهالي منطقة حصن هونين(٧١) القريبة منها الواقعة تحت السيطرة الصليبية (الإفرنج) الذين – على ما يبدو – كانوا يعيشون حياة صعبة لتدهور أوضاع أراضيهم الزراعية بسبب الاحتلال الصليبي، مما دفع أهالي هذا الحصن وفلاحيه إلى أن يجتازوا الحدود، لكي يتواصلوا مع أهالي بانياس لأغاثتهم، فراحوا يتقاسمون معهم غلة أراضيهم الزراعية، ويسمحون لمواشيهم بالرعي فيها، مما لم يشعرهم بما هم فيه من أوضاع مزرية، وذلك نتيجة للتكاتف والتلاحم الذي أبداه الشاميون فيما بينهم، وخفف عنهم بلاء ما هم فيه(٧٢).

ونصل هنا، إلى أنه من خلال المعلومات التي قدمها لنا الرحالة ابن جبير والرحالة ناصر خسرو تمكنا من تكوين صورة وإن كانت بسيطة عن الزراعة في المناطق التي زاراها خلال رحلتهما لبلاد الشام، على الرغم من اختلافهما واتفاقهما في بعض المعلومات المتعلقة ببعض المناطق، التي على ما يبدو كان للأجواء المناخية دور في تغير طبيعتها الزراعية، إضافة إلى عدم تركيز ناصر خسرو على النواحي الزراعية بشكل كبير سوى ما لفت انتباهه بشدة،

واهتمامه بجوانب أخرى عمرانية واجتماعية وغيرها، إلا أن الجميل فيما قدمه الرحَّالان المذكوران هو اهتمامهما بذكر وسائل الري التي كان يعتمد عليها أهالي المناطق الزراعية التي زاراها، ومصادرها، وأنواع الفواكه التي كانت تنتجها هذه الأراضي والبساتين، التي سوف نتحدث عنها في المحاور التالية.

المبحث الرابع :

مصادر المياه في كتابات الرحالة المسلمين:

من الأمور التي لاحظناها عند دراستنا لتاريخ الزراعة في بلاد الشام في كتابات الرحالة ناصر خسرو وابن جبير أنهما أوليا اهتماماً خاصاً بمصادر المياه والري التي اعتمد عليها أهل الشام لسقي أراضيهم، أكثر من اهتمامهم بالزراعة نفسها، على الرغم من أن ذكرها أيضاً جاء عرضياً ولم يكن أساسياً، ومن الجميل فيما جاء به هذان الرحالتان هو أنهما جاءا بمعلومات تفصيلية عن هذه المصادر، محددين منابعها وفروعها وتقسيماتها، وهي تفاصيل مهمة قد لا نجدها عند غيرهم من الرحالة الذين زاروا بلاد الشام في العصر الإسلامي، ومن أشهر هذه المصادر كما جاء عنهم:

١. الأمطار:

اعتمدت الكثير من مناطق بلاد الشام التي لم تكن بها أنهار وعيون على مياه الأمطار التي كانت تتساقط للتحول إلى مياه جوفيه يتم استخراجها عن طريق الآبار، وقد لاحظ كلٌ من ناصر خسرو وابن جبير ذلك، ودونا ما شاهداه عن تلك المناطق، ومنها معرة النعمان التي اعتمد سكانها على الأمطار التي – على ما يبدو– أنها كانت غزيرة، لما وصف عن أراضيها الزراعية من خضرة وإنتاج لأنواع الحبوب والفواكه[٧٣]، وهو دليل على خصوبة تربتها، ووفرة أمطارها وغزارتها، وقد وصفها ابن جبير[٧٤] بقوله إنها من أخصب بلاد الله، وأكثرها أرزاقاً، كما اعتمد أهالي مدينة الرملة القريبة من قيسارية على مياه الأمطار في شربهم وسقيهم لمزارعهم، ولأجل الحفاظ على هذه المياه عند تساقطها بنى الأهالي في منازلهم أحواضاً خاصة للحفاظ على هذه المياه، لتبقى ذخيرة دائمة لهم، كما فعلوا الشيء نفسه في مساجدهم التي أصبحت مسقى لجميع الناس يأخذون منها ما يريدون[٧٥].

وفضلاً عن ذلك، فقد اعتمدت مناطق أخرى في بلاد الشام على الأمطار التي صارت هي المصدر الوحيد لري مزارعها وبساتينها مثل مدينة بيت المقدس التي يشير ناصر خسرو[٧٦] إلى أن أشجار بساتينها تنبت من غير ماء، ومع ذلك فالخيرات بها كثيرة ورخيصة، لاعتمادها على ما تنزله السماء من أمطار، تتحول إلى مياه جوفية، تساعد على خصوبة التربة وسرعة خروج المزروعات والثمار، بعكس القرى المحيطة بها التي احتوت على العديد من العيون.

٢. الأنهار:

من النعم التي أنعم الله تعالي بها على بلاد الشام كثرة الأنهار التي تشق طريقها وسط الأودية والسهول الشامية، وقد كانت كثرة تلك الأنهار وتعدد فروعها من الأمور التي لفتت نظر الزائرين إليها من الرحالة وغيرهم وعلى رأسهم الرحالة ناصر خسرو وابن جبير، وقد تعددت تلك الأنهار في بلاد الشام واتخذت تسميات مختلفة، ومن أشهر تلك الأنهار: نهر العاصي(٧٧) الذي كانت تقع على ضفافه مدينة حماه التي اعتمد أهلها على مياهه لري مزارعهم وبساتينهم وحدائقهم، ولأغراضهم الخاصة(٧٨)، كما استفاد أهالي مدينة حمص من مياه نهر العاصي الذي كان يجلب لها – على ما يبدو – عبر قنوات، ليروي ما بها من جدب(٧٩). كما اعتمدت مدينة حلب في الحصول على مياهها على النهر الذي كان يجري من جوفها ليسقي البساتين القريبة منها ويرويها(٨٠)، واعتمدت قرية النبك(٨١) على جدول كان يجري في وسطها ليسقي المحارث المحيطة بها(٨٢)، كما وجد قي بلدة القصير(٨٣) على الطريق الجبلي الداخل إلى دمشق نهر جاري، انتشرت على ضفافه البساتين التي امتدت حتى مدينة دمشق، وقد وصفها ابن جبير بالحسن والجمال الذي لا يوصف(٨٤). إضافة إلى ما ذكرنا، انتشرت الأنهار في مدينة دمشق والقرى المحيطة بها وربوتها، ففي الربوة فقط وجدت سبعة أنهار يأخذ كلٌ منها طريقاً خاصاً به، وأكبر هذه الأنهار، نهر يعرف بثَوار، وهو يشق طريقه تحت الربوة ليسقي بساتين المنطقة، ويزيدها نضارة وجمالاً(٨٥)، وكذلك الأمر بالنسبة لمدينة دمشق التي اشتهرت عبر التاريخ بمياه أنهارها الغزيرة(٨٦) التي جعلت منها مثلما يذكر ابن جبير(٨٧) جنة في الأرض، في حين وجد في مدينة بانياس القريبة من دمشق نهر يجري تحت سورها ليسقي الأراضي المحيطة بها(٨٨).

٣. العيون والينابيع والقنوات:

شكلت العيون كغيرها مصدراً من مصادر المياه والري في بلاد الشام، بل إنها مصدر رئيس لمياه الأنهار، وقد انتشرت تلك العيون في مناطق مختلفة من هذه البلاد، وبشكل كبير في المناطق الجبلية الغنية بالمياه، وقد لاحظ ناصر خسرو وابن جبير مياه تلك العيون تتفجر في مناطق متعددة من بلاد الشام، منها المنطقة الساحلية الجبلية المؤدية من حماة إلى دمشق، وهو الطريق الذي سلكه ناصر خسرو أثناء خروجه من حماه ليتجه إلى دمشق(٨٩)، وعين قلعة قلمون الواقعة على الخط الساحلي جنوب مدينة طرابلس التي كانت تتدفق من داخل القلعة نفسها(٩٠)، وعين بلدة بزاعة التي كان يخترق ماؤها بسيط بطحاء البلدة ليصل إلى بساتينها ويزيدها نضارة وخضرة، فتشتهر بجمال رونقها وحسنها(٩١)، وعين قرية القارة(٩٢) التي كان يتسرب ماؤها إلى صهريج كبير، للحفاظ عليه من الضياع في الأرض(٩٣).

وفي الوقت نفسه، اعتمدت مدينة عكا المشيدة على مرتفع بعضه من أرض وعرة، وبعضه سهل في الحصول على مياهها على عين ماء عند الباب الشرقي على اليد اليسرى من المدينة، وكان الأهالي يصلون إلى ماء هذه العين

بنزول ست وعشرين درجة، وتسمى عين البقر[٩٤]، كما كان في آخر مدينة عكا من جهة الشرق واد ينبع منه ماء يسيل في اتجاه البحر ليصب فيه[٩٥]، في حين انتشرت عيون الماء العذبة الجارية في الجهة الجنوبية من عكا في وادي قرية حظيرة؛ الواقع في الجانب الغربي منها[٩٦]، وفي مدينة صور عند بابها البري[٩٧]، وفي مدينة قيسارية[٩٨]، وفي قرية العنب القريبة من مدينة الرملة، وعمل لها الأحواض لحفظها[٩٩]، وفي قرى بيت المقدس التي احتوت على العديد من العيون[١٠٠]، لاسيما القرى الجنوبية منه، ومن أشهرها عين سلوان[١٠١] التي كانت تنبع من الصخر، وأقام عندها الناس وعمروا بيوتهم، ونتيجة لغزارة هذه العين استفادت من مياهها القرى التي كانت تمر بها مثل قرية شيدوا التي زاد العمران فيها بسبب وفرة المياه القادمة منها، وزرعت الأرض، وأثمرت البساتين، واستفاد الأهالي[١٠٢]، وكذلك الأمر بالنسبة للأربع القرى الواقعة في الجهة الجنوبية من بيت المقدس للمتجه إلى الخليل والمعروفة بالفراديس لجمال طبيعتها، بعد أن تحولت إلى حدائق وبساتين وجنان بسبب عين الماء الجارية فيها[١٠٣]، كما وجدت في قرية مطلون في الخليل عين ماء تخرج من الصخر، يتفجر ماؤها رويداً رويداً، وقد استفاد منها أهالي هذه القرية والقرى المجاورة[١٠٤].

لقد دفعت صعوبة وصول مياه بعض الأنهار والعيون إلى بعض المناطق البعيدة بعض الشيء عن ضفافها أهالي الشام إلى حفر الكثير من السواقي والقنوات التي تمكنهم من الحصول على كفايتهم من المياه، ومن أشهر تلك السواقي والقنوات هي التي حُفرت على ضفاف نهر العاصي، وشكلت بسواقيها فروعاً له، ومن خلالها تمكن الناس من سقي أراضيهم ومزارعهم، وأخذ كفايتهم من مياهه[١٠٥]، وفي مدينة صور الساحلية شيدت قنوات على شكل عقود حجرية لمرور المياه من مسافات طويلة إلى المدينة التي كانت تفتقر للمياه بسبب وقوعها على ساحل البحر[١٠٦]، كما شيد أهالي قرية مطلون في الخليل قناة لنقل مياه العين التي كانت تنبع من أراضيهم ومدوها لمسافة بعيدة إلى خارج القرية حيث بني حوض مغطى يصب فيه الماء فلا يذهب هباء حتى يفي بحاجة أهل القرية وغيرهم[١٠٧].

٤. الآبار:

كانت وما زالت الآبار مصدراً آخر من مصادر الحصول على المياه في بلاد الشام، وقد اعتمد الكثير من أهالي مدن الشام وقراها، على تلك الآبار للحصول على المياه لاستخداماتهم الشخصية، ولري مزارعهم، وسقي مواشيهم، فراحوا يحفرونها في كل مكان حتى في داخل بيوتهم، ويذكر ابن جبير أنه كان في مدينة منبج في الدار الواحدة البئر والبئران[١٠٨]، كما انتشرت الآبار العذبة – في المدة موضوع الدراسة– في العديد من مدن الشام وقراها منها الآبار التي حفرت في معرة النعمان[١٠٩]، وقرية كفر كنه غرب طبرية[١١٠]، وفي مدينة صور التي ميزت بكثرة أبارها وجبابها[١١١]، لدرجة أنه لا يخلو دار منها مثلما يخبرنا ابن جبير[١١٢].

٥. البحيرات:

من الظواهر التي ميزت بلاد الشام عن غيرها من البلاد الإسلامية انتشار البحيرات فيها، واعتماد الأهالي هناك عليها كواحدة من أهم مصادر المياه، ومنها يحصلون على ما يكفيهم ويزيد من المياه الذي يستخدمونها لشربهم وسقي مزارعهم وبساتينهم، وقد عرفت المنطقة عدداً من تلك البحيرات الشهيرة أبرزها: بحيرة طبرية[١١٣] التي كانت مصدر أساس لأهالي مدينة طبرية، وقد وصفها ناصر خسرو[١١٤] بأنها عذبة ولذيذة، وأكد ذلك ابن جبير[١١٥].

لقد كانت كل تلك الوسائل المذكورة من أهم مصادر المياه التي كانت منتشرة في بلاد الشام في المدة – موضوع الدراسة– ، وقد أوردها كلٌ من الرحالة ناصر خسرو وابن جبير وعلقوا عليها، إلا أن المفيد الذي أضافه كلٌ منهما هو المعلومات القيمة حول وسائل حصول عامة الناس في الأسواق والمساجد على المياه، وأساليب إيصالها إليهم لتكون في متناول أيدي الجميع، بما فيهم – على ما يبدو– الباعة من الفلاحين العارضين لخضارهم وفواكههم في هذه الأسواق، وغيرهم من العاملين فيها، إضافة إلى المستفيدين من هذه المياه لأغراضهم الخاصة، وبيوتهم، وحدائقهم المحيطة ببيوتهم، وبساتينهم القريبة من بيوتهم، وغير ذلك، ومن تلك الوسائل التي ذكرها لنا هذان الرحالان: المشارع[١١٦] ذات الصنابير[١١٧]، والأحواض التي انتشرت في وسط الأسواق للمساعدة على أن تكون المياه في متناول أيدي جميع الناس للاستفادة منها، والحصول عليها دون عناء أو مشقة، ولري الأراضي الصغيرة، والحدائق التي قد تكون ملحقة بالبيوت، وقد لاحظ ناصر خسرو[١١٨] بعض تلك المشارع في سوق مدينة طرابلس، كما لاحظ بناء أحواض المياه في مدينة الرملة لحفظ مياه الأمطار التي كانت المصدر الوحيد للسكان الذين بلغ بهم الأمر إلى بناء مثل تلك الأحواض حتى في منازلهم ومساجدهم لكي تكون ذخيرة لهم عند توقف الأمطار[١١٩]، كما بنى أهالي قرية العنب القريبة من مدينة الرملة أحواضاً لجمع مياه العين التي تنبع في قريتهم، لأجل الحفاظ عليها من الضياع والاستفادة منها في ري أراضيهم وبساتينهم[١٢٠]، وفعل أهالي بيت المقدس الشيء نفسه؛ فحفروا الأحواض والصهاريج في المدينة، لاسيما في داخل أرضية المسجد، لكي لا يضيع ماء المطر، وقد أسهب ناصر خسرو في وصف تلك الأحواض والصهاريج، التي عُملت في كل مكان لاستقبال المياه المنحدرة من الجبال بعد هطول الأمطار، وقد عكف الناس هناك على عمل قنوات خاصة يمكن من خلالها الحصول على نصيبهم من تلك المياه المتجمعة في الصهاريج، وقد ساعدت طبيعة القدس الجبلية على أن تكون مياه تلك الصهاريج من أنقى المياه لنظافتها، ولعدم تعرضها للأتربة، وللحفاظ عليها صُنعت لها الأغطية من الحجار حتى لا يسقط فيها شيء[١٢١].

خلاصة القول، أن ما قدمه كلٌ من الرحالة ناصر خسرو والرحالة ابن جبير يعطي لنا تصوراً عن وسائل الري ومصادر المياه التي اعتمد عليها أهل بلاد الشام في سقي أراضيهم في ذلك الحين، ومن خلال ما قدَّماه من معلومات لاحظنا تنوع تلك الوسائل وغزارتها، مما أسهم في خصوبة التربة، وعمل الكثير من الناس في الزراعة،

وانتشارها على نطاقٍ واسع، مما حول الكثير من مناطق الشام إلى بساتين وحدائق غناء ذات حسن وجمال وطبيعة خلابة، وهي صفة قد لا نجدها عند الكثير من أقاليم العالم الإسلامي – في المدة موضوع الدراسة– ، إلا أن ما زاد من أهمية بلاد الشام ما كانت تنتجه مزارعها وبساتينها ذات المساحات الواسعة من أنواع المحاصيل الزراعية المميزة، وهو ما سنتناوله في المبحث القادم.

المبحث الخامس :

أنواع المحاصيل الزراعية ومناطق زراعتها في كتابات الرحالة المسلمين:

لا يختلف الرحالتان ناصر خسرو وابن جبير[١٢٢] على أن محاصيل بلاد الشام الزراعية كانت من أطيب المنتجات وألذها، على مستوى المناطق التي زاراها، لما تميزت به من عناية واهتمام من قبل الفلاحين العاملين في الأرض المنتجة لها، ولما حصلت عليه هذه الأرض من مياه روت عطشها فجادت فيما أعطت، وقد لفتت تلك المحاصيل نظر الرحالة الذين زاروا بلاد الشام في العصر الإسلامي بعد أن رأوها وذاقوها ثم راحوا يصفون لنا ما شاهدوه، وما تذوقوه من الثمار المتنوعة، محددين مناطق زراعتها، وأماكن تصريفها على مستوى بلاد الشام التي أسهمت طبيعتها السهلية والجبلية الخصبة على أن تتنوع محاصيلها الزراعية بين فواكه وخضار ونباتات وأشجار طبية وأزهار وورود وغيرها، وقد ساعدتنا مؤلفات الرحالة المذكورين على أن نتعرف على أنواع تلك المحاصيل، وأماكن زراعتها، وعلى الرغم من كثرة منتجات الشام الزراعية إلا أن هناك أنواع محددة هي التي تم ذكرها فقط والتركيز عليها، لأهميتها – على ما يبدو– في ذلك الحين، وطيب مذاقها، وندرة زراعة بعضها في البلاد الإسلامية، وقيمتها الغذائية والسعرية في أسواق ذلك الزمن، ومن أشهر تلك المناطق والمدن الزراعية، وأهم منتجاتها كما وردت في كتابات الرحالة: مدينة منبج التي تنوعت بساتينها في زراعة أنواع الأشجار المثمرة[١٢٣]، وحلب التي اشتهرت بساتينها وحدائقها بزراعة العنب[١٢٤]، ومنطقة معرة النعمان التي اشتهرت غالبية بساتينها بزراعة الحبوب مثل القمح الذي أكثر أهلها منه لحاجتهم إليه، وزرعوا أيضاً في بساتينهم التين والزيتون والفستق والعنب[١٢٥]، وتخصصوا بزراعة الزيتون الأسود تحديداً دون غيره من أنواع الزيتون، إضافة إلى ما ذكرنا من أنواع الفواكه وغيرها[١٢٦]. كما زرع أهالي طرابلس في بساتينهم أنواع الفواكه التي وصفها ناصر خسرو بأنها أحسن من الفواكه التي تزرع في بلاد العجم بمائة مرة، مثل النارنج[١٢٧]، والإترنج[١٢٨]، والموز، والليمون، وقصب السكر، والتمر الذي عمل الأهالي على تصنيع نوع خاص من العسل يستخرجونه منه[١٢٩]، وانتشرت زراعة العنب أيضاً في بساتين مدينة حماه على ضفاف نهر العاصي[١٣٠]، في حين انتشرت زراعة أنواع الفواكه والخضار وغيرها في بساتين مدينة دمشق وغوطتها وأريافها وقراها، وتخصصت بعض تلك البساتين بزراعة أنوع معينة منها مثل أشجار النارنج مثلاً التي وجدت لها بساتين خاصة بزراعتها[١٣١].

وفي الوقت نفسه، زُرع في منطقة الجبيل النخيل وغيره من أشجار المناطق الحارة[١٣٢]، وفي صيدا زرع الأهالي الكثير من الأشجار المثمرة، وقصب السكر[١٣٣]، وانتشرت زراعة الفواكه بأنواعها في جبل لبنان[١٣٤]، وفي حيفا الساحلية وجدت أشجار النخيل بأعداد كبيرة[١٣٥]، كما زُرعت في بساتين قيسارية أيضاً أشجار النخيل، وأشجار النارنج والاترنج[١٣٦]، واحتوت المناطق السهلية والجبلية للمنطقة الممتدة على الطريق من قيسارية حتى الرملة مروراً بمدينة كفر سابا أو كفر سلام على أشجار التين والزيتون المثمرة، ووجد في مدينة الرملة نفسها صنف خاص من التين، يقول ناصر خسرو إنه ليس هناك أحسن منه في أي مكان، وبلغ بالأهالي الأمر إلى تصديره إلى جميع البلدان لحلاوة طعمه ولذته.

وإضافة إلى ذلك، انتشرت أشجار الزيتون والتين وغيرها من أشجار الفواكه الأخرى في بيت المقدس، وقد أولى أهالي هذه المدينة اهتمام خاصاً بزراعة الزيتون خاصة لما في زراعته من مردود مادي كبير يعود بالخير عليهم، وقد عمل هؤلاء الأهالي على عصره وتصديره إلى خارج بلاد الشام، ويذكر ناصر خسرو أن هناك أرباب عائلات يملك الواحد منهم خمسين ألف مَنّ مِنْ زيت الزيتون يحفظونها في أبار وأحواض خاصة، ويصدرونها إلى أطراف العالم.

كما زُرع في منطقة الخليل والقرى المجاورة لها أنواع الفواكه والأشجار المثمرة من عنب وتين وزيتون وغيرها، وكانت الزراعة المعروفة عند الغالبية العظمى من الأهالي هي زراعة الشعير والقمح والزيتون والعدس والعنب (الزبيب) [١٣٧]، وانتشرت زراعة الفواكه بأنواعها في المناطق الريفية القريبة من عكا وصور، وصارت هي مصدر أهالي هاتين المدينتين في الحصول على أنواع الفواكه[١٣٨]، كما كان يباع في أسواق عكا التي وصفها ابن جبير بالجامعة، لكل ما يحتاجه الناس من خضار وفواكه وحبوب، كانت على ما يبدو تستورد من المناطق الريفية المجاورة لها، مثل الرمان والسفرجل والبطيخ والكمثرى والجوز والحمص والبقوليات والبصل والثوم والتين وغيرها من المنتجات الزراعية، وقد استنتجنا بيع هذه الخضار والفواكه والحبوب في عكا من خلال الإشارة التي مدنا بها ابن جبير عندما وصف وضعه ووضع زملائه في البحر بعد ضياعهم فيه، وتعرضهم لأهواله، ونفاد ما تبقى معهم من طعام، عدى ما ذكرنا من فواكه وخضار كانوا على ما يبدو اشتروه من مدينة عكا، قبل ركوبهم البحر[١٣٩].

ومما يميز بعض المناطق في الشام أن سكانها، لم يهتموا فقط بزراعة المحاصيل التي تستهلك في حياتهم اليومية؛ بل ذهب البعض منهم إلى غرس أنواع النباتات العطرية من ورود وأزهار متنوعة، وزرعوها في حدائق منسقة، تدل على المستوى الرفيع الذي وصل إليه أهالي هذه المناطق في الاهتمام بالحدائق وغيرها، مثلما فعل أهالي بعض المناطق الممتدة بين حماة وطرابلس، الذين خصصوا سهولاً بأكملها لزراعة أزهار النرجس الأبيض[١٤٠]، كما زرعت أراضي وبساتين دمشق وغوطتها الأزهار والرياحين الجميلة[١٤١]، وكذا أهالي جبيل[١٤٢]، وصيدا[١٤٣]، الذين احتوت مزارعهم على حدائق خاصة بأنواع الورود الحمراء والبيضاء الناصعة[١٤٤]، كما اهتم أهالي الجانب الغربي

من طبرية[١٤٥] بزراعة الياسمين، الذي أحاطوا به بيوتهم ومساجدهم، وأولوا عناية واهتماماً خاصاً بها، وراحوا يبحثون عن المواد التي يستطيعون بها حماية الأشجار المزروعة من الآفات والحشرات التي قد تأتي على الزرع وتقضي عليه وتتلفه[١٤٦]، مما يكلفهم الكثير من الخسائر المادية.

وقد لقيت النباتات الطبية اهتماماً كبيراً في منطقة بلاد الشام من قبل الأهالي هناك، بينما نبت بعضها برياً، ومن تلك النباتات: نبات السذاب[١٤٧] الذي كان ينبت برياً وبكميات كبيرة على الجبال وفي الصحراء الممتدة من منطقة الرملة (فلسطين) إلى قرية العنب القريبة منها[١٤٨]، كما وجد في بيت المقدس أيضاً نبات الحور[١٤٩]، وقد عد ناصر خسرو وجود مثل هذه النباتات في بيت المقدس من النوادر[١٥٠]، واشتهرت منطقة الخليل والقرى المجاورة بزراعة نبات شجر السماق[١٥١] الطبي[١٥٢]، الذي يستخدم في علاج بعض الأمراض، وفي قرية أعبلين القريبة من عكا زُرعت شجر الخرتوت[١٥٣] في حظائر خاصة[١٥٤]، وانتشرت زراعة شجرة الرند[١٥٥] العملاقة وبكثافة في الوادي الممتد بين حصني هونين وتبنين القريبين من بانياس، وقد تعجب ابن جبير من هذا المكان، وما فيه من شجر الرند الكثيف[١٥٦].

المبحث السادس:

العوامل المؤثرة على الزراعة في كتب الرحالة:

واجهت الزراعة في بلاد الشام العديد من المؤثرات الطبيعية التي أتت عليها ودهورتها، وحولتها إلى أراضي يابسة غير مثمرة، ومن تلك المؤثرات والأخطار: انتشار الجفاف في بعض المناطق؛ لانقطاع سقوط الأمطار التي أدت بدورها إلى قحط بعض الأراضي الزراعية في عدد من المناطق مثل مدينة حمص التي أدى جفافها إلى أن يصفها ابن جبير[١٥٧] بقوله: ((لا ماء ولا شجر ولا ظل، ولا ثمر، فهي تشتكي ظمأها، وتستقي على البعد ماءها))، كما أثرت الزلازل التي شهدتها المنطقة[١٥٨] – خلال المدة موضوع الدراسة– ، على العديد من مقدرات أهالي الشام ودمرت بعض أراضيهم الزراعية وخربتها، مثل الزلزال الذي حدث في محرم سنة ٤٢٥هـ/ ديسمبر ١٠٣٣م، الذي خُرب بسببه عمارات كثيرة[١٥٩]، في حين أتلفت الحشرات مساحات واسعة من أراضي الشام الزراعية، فراحوا يبحثون عن الوسائل الصحية التي تمكنهم من الحفاظ عليها وعلى ما فيها من زرع دون إحداث أي مضرة به، ويذكر ناصر خسرو[١٦٠] أن الناس هناك كانوا يستخرجون من قاع مياه بحيرة لوط (البحر الميت) شيئاً كالحجارة السوداء غير صلب، ويقطعونه ويحملونه إلى المدن والولايات، ويقال إنه إذا وضعت قطعة منه تحت شجرة يمتنع الدود عنها من غير أن يمس جذرها أذى منه، فلا يتلف الشجر مما تحت الأرض من دود وحشرات.

إضافة إلى ذلك، تأثرت الحياة الزراعية بما شهدته بلاد الشام من متغيرات سياسية خطيرة لاسيما في المدة التي زار فيها ابن جبير المنطقة، حيث كان لتفلت الأوضاع الأمنية وعدم الاستقرار دوره فيما شهدته البلاد من تدهور

زراعي سببه الصراع الذي حدث بين المسلمين والصليبيين، خاصة حول بعض الحصون المهمة، وبعض المناطق الساحلية، ومما يؤكد ما ذهبنا إليه الإشارة التي ذكرها ابن جبير[١٦١] حول خروج أهالي حصن هونين القريب من منطقة بانياس الذي كان واقعاً تحت سيطرة القوات الصليبية إلى المناطق القريبة منهم والواقعة بيد المسلمين، لأجل الحصول على ما يحتاجونه من أطعمة مختلفة وعشب لهم ولمواشيهم، ويبدو أن هناك أسباباً هي التي دفعتهم إلى الخروج من منطقتهم؛ سببها عدم الاستقرار الذي منعهم من مزاولة عملهم في زراعة أراضيهم، وهو ما تعرضت له بعض المناطق الساحلية الأخرى مثل عكا التي كانت منطقة صراع بين المسلمين والصليبيين بسبب تحصيناتها الطبيعية، وكانت تفتقد للزراعة والمحاصيل الزراعية التي كانت تأتيها من المناطق القريبة منها[١٦٢].

الخاتمة:

لقد توصلنا من خلال دراستنا المعنونة بـ: ((الزراعة في بلاد الشام في كتابات الرحالة المسلمين ناصر خسرو وابن جبير نموذجا)) إلى عدد من النتائج والاستنتاجات أهمها:

١- إن كتب الرحلات تعد من أهم المصادر العلمية التي يمكن الاعتماد عليها في الحصول على الكثير من المعلومات المتعلقة بحياة الناس العامة بما فيها بعض جوانب حياتهم الزراعية.

٢- إن الرحالة الفارسي ناصر خسرو والرحالة الأندلسي ابن جبير انفردا بالكثير من المعلومات والأخبار عن الأوضاع الزراعية في الشام وهو ما لم يقدمه غيرهما من الرحالة المعاصرين لهما أو الذين زاروا الشام في المرحلة الفاصلة بينهما.

٣- إن رحلة ناصر خسرو ورحلة ابن جبير أعطتا لنا صورة واضحة وشبه متكاملة عن طبيعة معظم مناطق بلاد الشام، إلا أن أكثر ما ميزها وجعلها ذات أهمية أن من قاموا بها دخلوا الشام من منطقة واحدة، ثم سار كل واحد منهما في طريق مغايرة عن الأخرى، وهذا أعطى لنا معلومات أوسع عن أكثر مناطق وقرى المنطقة، وطبيعتها التي اختلفت من بلاد إلى أخرى.

٤- إن طبيعة المنطقة الزراعية والمناخية في بلاد الشام منذ دخول ناصر خسرو إلى دخول ابن جبير إليها اختلفت بعد أن تأثرت بالمتغيرات البيئية والمستجدات السياسية والأمنية الناتجة عن تعرض معظم مناطق الشام لاسيما الساحلية للعدوان الصليبي الذي شغل الناس عن مزاولة عملهم في الأرض، وفرض عليهم الكثير من الضرائب والمكوس التي أثقلت كاهلهم، ودفعت بعضهم إلى ترك أراضيهم لينتقل إلى مناطق أخرى أكثر أمناً وأماناً واستقراراً.

٥- إن ما قدمه الرحالتان المذكوران يبين لنا مدى الثروة الطبيعية، الزراعية والمائية التي أنعم الله تعالى بها على هذه البلاد، مما ميزها عن غيرها من مناطق البلاد الإسلامية.

٦- إن تنوع طبيعة بلاد الشام الجبلية والسهلية والساحلية كانت وراء تنوع محاصيلها الزراعية التي جمعت بين محاصيل المناطق الباردة ومحاصيل المناطق الحارة، وهذه ميزة قد لا نجدها عند الكثير من أقاليم العالم الإسلامي.

٧- إن أهالي بلاد الشام وصلوا إلى مرحلة من الوعي الزراعي مكنتهم من الاهتمام بأراضيهم الزراعية، وإحياء الميت منها، وبناء أحواض المياه، وشق القنوات لها، بما يساعدهم على الاستفادة من كل قطرة ماء؛ أنعمت بها عليهم السماء، أو أكرمتهم بها الأرض.

الهوامش والتعليقات:

(١) سوف يتم الحديث بالتفصيل عن هؤلاء الرحالة في سياق البحث.

(٢) عن تلك الفوائد انظر: الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (ت: ٥٠٥هـ/ ١١١١م)، إحياء علوم الدين، ج٢، دار المعرفة، بيروت، دون تاريخ، ص٢٤٥. وانظر: عبد الرحمن بن خلدون (٨٠٨هـ - ١٤٠٥م)، المقدمة، دار الجيل، بيروت، د. ت، ص٥٩٨.

(٣) سورة الملك، آية (١٥).

(٤) سورة الروم، آية (٩).

(٥) سورة الروم، آية (٤٢).

(٦) سورة المؤمنون، آية (٢٠).

(٧) سورة الحج، آية (٤٦).

(٨) سورة النمل، آية (٨٨).

(٩) ناصر خسرو علوي (توفى بعد سنة ٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م)، سفر نامة، ط٢، ترجمة: يحيى الخشاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣م، ص١٩- ٢٢.

(١٠) انظر: الغزالي، إحياء علوم الدين، ص٢٤٥؛ ابن خلدون، المقدمة، ص٥٩٨.

(١١) الجوهري، يسري وآخرون، دراسات في جغرافية العالم الإسلامي، دار الجامعات المصرية، الإسكندرية، ١٩٧٩م، ص١٠٣؛ جنيدل، سعيد بن عبد الله، معجم الأمكنة الواردة ذكرها في صحيح البخاري، دار الملك عبد العزيز، الرياض، ١٤١٩هـ، ص٢٩٠.

(١٢) ابن جبير، محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي البلنسي (ت: ٦١٤هـ/ ١٢١٧م)، رحلة ابن جبير، دار الكتاب اللبناني، بيروت، د. ت، ص١٨٣ - ١٩٧.

(١٣) الليث، رضوان أحمد مصلح، الحياة العلمية في بلاد الشام خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص٦٩، ١٤٥- ١٤٩.

(١٤) منبج: مدينة قديمة في الشمال الشرقي من الشام، يستغرق السير منها إلى حلب يومان، وإلى الفرات يوم واحد. انظر: أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (ت: ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م)، معجم البلدان، ج٥، دار الفكر، بيروت، د. ت، ص٢٠٥، ٢٠٧؛ بك، أمين واصف، معجم الخريطة التاريخية للممالك الإسلامية، تحقيق: أحمد زكي باشا، دار المصري للطباعة، القاهرة، د. ت، ص١١٢. وتقع منبج حاليًا ضمن الأراضي السورية شمال شرقي حلب. موستراس، المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية، ترجمة وتعليق: عصام محمد الشحادات، ط١، بيروت: دار ابن حزم، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ص٤٦٨.

(١٥) خسرو، سفر نامة، ص٥٥- ٨٩. وانظر خريطة رقم (١) عن المناطق التي مر بها هذا الرحالة.

(١٦) خسرو، المصدر السابق نفسه، ص١١. وعن هذه التقسيمات ووضع الشام، انظر: طقوش، محمد سهيل، تاريخ السلاجقة في بلاد الشام (٤٧١ - ٥١١هـ/ ١٠٧٨- ١١١٧م)، ط٣، دار النفائس للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م، ص٥٣- ٦٣.

(١٧) الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، ط١، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ١٩٩٥م، ص٢٢٣- ٣٢٣.

(١٨) يعد كتاب الأنساب أشهر مؤلفات السمعاني التي دون فيها خط سير رحلته وما شاهده في بلاد الشام. انظر: السمعاني، عبد الكريم بن محمد بن المنصور التميمي المروزي (ت: ٥٦٢هـ)، الأنساب، ج١، تحقيق: عبد الرحمن العلمي، بيروت، ١٩٨٠م، ص١٨- ٣٠. وانظر: محمد مؤنس، الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام، ص٢٢٣- ٢٤٣.

(١٩) نسبة إلى شيزر بلده صغيرة في الشام تقع على نهر العاصي بالقرب من حماة. الحميري، محمد بن عبد المنعم (ت: أواخر القرن ٩هـ / أواخر القرن١٥م)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، ط٢، مؤسسة ناصر للثقافة- مطابع دار السراج، بيروت، ١٩٨٠م، ص٣٥٢. وانظر: الدفاع، علي بن عبد الله، رواد علم الجغرافية في الحضارة الإسلامية، مكتبة التوبة للنشر، ط٢، ١٩٩٣م، ص١٦٦.

(٢٠) انظر: محمد مؤنس، الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام، ص٢٤٥- ٢٦٤.

(٢١) الدفاع، رواد علم الجغرافية، ص١٦٩.

(٢٢) ابن خلكان، أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت: ٦٨١هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج٣، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٠٠م، ص٣٤٦.

(٢٣) انظر: محمد مؤنس، الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام، ص٢٦٩.

(٢٤) المقَّري، أحمد بن محمد المقري التلمساني (ت: ١٠٤١هـ)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٢، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر ، بيروت، ١٣٨٨هـ، ص٣٨١- ٣٨٢.

(٢٥) نسبة إلى بلنسية أحد مدن الأندلس الشهيرة، والشاطبي نسبة إلى مدينة شاطبة في شرقي الأندلس وشرقي قرطبة وهي مدينة كبيرة قديمة. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص٤٩٠؛ ج٣، ص٣٠٩. وقد لقب ابن جبير بالبلنسي لأنه ولد في مدينة بلنسية سنة ٥٤٠هـ/ ١١٤٥م، كما لقب بالشاطبي لأنه تلقى تعليمة في مدينة شاطبة. انظر: الدفاع، رواد علم الجغرافية، ص١٧١ - ١٧٢.

(٢٦) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص٥، ١٧٦.

(٢٧) سفر نامة، ص٥٥- ٨٩.

(٢٨) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص٥، ٢٤- ٢٥. وانظر خريطة رقم (٢) عن خط سير رحلته.

(٢٩) الجوهري، جغرافية العالم الإسلامي، ص١١١، ١١٦- ١١٩، ١٢٩- ١٣٣، ١٤٣- ١٤٤.

(٣٠) خسرو، سفر نامة، ص٦٦، ٦٧.

(٣١) المصدر السابق نفسه، ص٥٥.

(٣٢) سوف يتم مناقشة ذلك بالتفصيل عند الحديث عن ما قاله ابن جبير عن هذه المدينة.

(٣٣) معرة النعمان: مدينة كبيرة قديمة، كثيرة المباني والأسواق، بينها وبين حلب خمسة أيام، ماؤهم من الآبار، وعندهم الزيتون الكثير والتين، ومنها كان أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعري. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص١٥٦؛ الحميري، الروض المعطار، ص٥٥٥؛ بك، معجم الخريطة التاريخية، ص١٠٨. وانظر: درادكة، صالح موسى، دراسات في الجغرافيا التاريخية لبلاد الشام، ط١، مطبعة السفير، عمان، ٢٠١١م، ص٢٧٣.

(٣٤) خسرو، سفر نامة، ص٥٦.

(٣٥) طرابلس: من مدن الشام العظيمة، وأهم معاقلها، يحدق بها البحر من ثلاثة أوجه، عليها سور صخر منيع، ولها رساتيق وأكوار وضياع جليلة، وبها من شجر الزيتون والكروم وقصب السكر وأنواع الفواكه. انظر: الحميري، الروض المعطار، ص٣٩٠؛ العوفي، محمد سالم، العلاقات السياسية بين الدولة الفاطمية والدولة العباسية في العصر السلجوقي (٤٤٧ - ٥٦٧هـ/ ١٠٥٥- ١١٧١م)، (د. ن)، الرياض، ١٤٠٢ هـ/١٩٨٢م، ص١٤٤. وتقع حاليًا شمال لبنان، وهي مركز محافظة طرابلس، وتعرف بطرابلس الشام تميزًا لها عن طرابلس عاصمة ليبيا، والتي

تعرف بطرابلس الغرب. موستراس، المعجم الجغرافي، ص٣٤٦-٣٤٨؛ أحمد وصفي زكريا، المشاهد وآثار في بلاد الشام، ط١، دار ومؤسسة رسلان، دمشق، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، ص١٩.

(٣٦) خسرو، سفر نامة، ص٥٧.

(٣٧) حيفا: مدينة بفلسطين، تقع في الجنوب الغربي من عكا، يحدها شرقاً الناصرة ونابلس، وجنوباً جنين وبني صعب، ويحيط بها من الجهة الغربية البحر الأبيض المتوسط. انظر: فلسطين في نهاية العصر العثماني من خلال الرحلة التي قام بها محمد رفيق التميمي ومحمد بهجت الكاتب، ولاية بيروت، ج٢، دراسة وتحقيق: زهير عبد اللطيف غنايم، ومحمد عبد الكريم محافظة، ط١، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع، أربد، ٢٠٠١م، ص٢٨٢.

(٣٨) خسرو، سفر نامة، ص٦٤.

(٣٩) قيسارية: مدينة بالشام على ساحل البحر (المتوسط) كبيرة عظيمة، بينها وبين يافا ثلاثون ميلاً، وكانت من أمنع مدن فلسطين، فيها الكروم والبساتين وماؤها من العيون، ومنها تسقى كرومهم. الحميري، الروض المعطار، ص٤٨٦.

(٤٠) خسرو، سفر نامة، ص٦٥.

(٤١) مدينة الرملة: هي قصبة الأردن، ويذكر المقدسي من مدنها: بيت المقدس بيت جبريل غزة ميماس عسقلان يافا ارسوف قيسارية نابلس أريحا عمان. أحسن التقاسيم، ص١٤٢. ويصفها ناصر خسرو بأنها مدينة كبيرة حصينة بها سور متين، ولها أبواب من حديد، كما يذكر أنها تسمى في الشام والمغرب فلسطين. خسرو، سفر نامة، ص٦٦. وانظر: درادكة، دراسات في الجغرافيا التاريخية، ص٢٧٧ – ٢٧٨.

(٤٢) خسرو، سفر نامة، ص٦٥، ٦٦.

(٤٣) المصدر السابق نفسه، ص٦٧.

(٤٤) المصدر السابق نفسه، ص٨٣ – ٨٤.

(٤٥) المصدر السابق نفسه، ص٨٤، ٨٥، ٨٦.

(٤٦) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص١٧٦.

(٤٧) المصدر السابق نفسه، ص١٧٧.

(٤٨) خسرو، سفر نامة، ص٥٥.

(٤٩) بزاعة: بلدة من أعمال وادي بطنان بين منبج وحلب، تكثر فيها العيون والمياه الجارية. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص١٠٩؛ الدمشقي، ابن ناصر الدين شمس الدين محمد بن عبد الله القيسي، توضيح

المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي، ج١، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٣م، ص٨٧. وهي الآن قرية سورية كبيرة تابعة لمحافظة حلب، تشتهر بالزراعة تروى أراضيها من نهر الذهب. أحمد وصفي زكري، المشاهد والآثار، ص٣٥٢، ٣٤٣.

(٥٠) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص١٧٧.

(٥١) المصدر السابق نفسه، ص١٧٩.

(٥٢) خسرو، سفر نامة، ص٥٥.

(٥٣) قنسرين: مدينة تقع على نهر حلب، وبينها وبين حلب اثنا عشر ميلاً. الحميري، الروض المعطار، ص٤٧٣، ٤٧٤. وتعد قنسرين حاليًا مدينة أثرية من مدن سوريا، تقع على سفح جبل النبي عيص. أحمد وصفي، المشاهد والآثار، ص٣٣٦.

(٥٤) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص١٨٠.

(٥٥) خسرو، سفر نامة، ص٥٥.

(٥٦) المصدر السابق نفسه، ص٥٦.

(٥٧) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص١٨٠.

(٥٨) حماه: مدينة قديمة كبيرة عظيمة، كثيرة الخيرات، تقع على نهر العاصي. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٣٠٠. وتقع الآن شمال سوريا، وهي مركز محافظة حماة، وتعد من أهم مدن سوريا من حيث عدد السكان. أحمد وصفي، المشاهد والآثار، ص٢٨٤؛ موستراس، المعجم الجغرافي، ص٢٥٣.

(٥٩) سوف يتم الحديث عنه لاحقاً، عند حديثنا عن مصادر المياه.

(٦٠) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص١٨١، ١٨٢.

(٦١) فهيم، حسين محمد، أدب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة (١٢٨)، الكويت، يونيو ١٩٨٩م، ص١٤.

(٦٢) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص١٨٣.

(٦٣) المصدر السابق نفسه، ص١٨٤، ١٩٢ – ١٩٤.

(٦٤) انظر: المصدر السابق نفسه، ص١٩٣، ١٩٩.

(٦٥) المصدر السابق نفسه، ص١٩٣ – ١٩٤، ١٩٦، ١٩٩.

(٦٦) المصدر السابق نفسه، ص٢٠١.

(٦٧) عكا: من أهم مدن الشام، وأبرز مرافئها في القديم، ولها تاريخ طويل، بينها وبين طبرية يومان. الحميري، الروض المعطار، ص٤١٠.

(٦٨) صور: مدينة بحرية حصينة جليلة من بلاد الشام، وهي قريبة من عكا. الحميري، الروض المعطار، ص٣٦٩. وانظر: درادكة، دراسات في الجغرافيا التاريخية، ص١٨٦.

(٦٩) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص٢١٥.

(٧٠) بانياس: مدينة صغيرة قريبة من دمشق، كانت ثغر بلاد المسلمين، وبها نهر يفضي إلى أحد أبواب المدينة، ولها محترث عظيم واسع في بطحاء متصلة. الحميري، الروض المعطار، ص٧٤.

(٧١) هونين: حصن بني بعد الخمسمائة هجرية بين صور وبانياس. القلقشندي، أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، ج٤، تحقيق: يوسف علي طويل، ط١، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٧م، ص١٥٧.

(٧٢) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص٢٠٩ – ٢١٠.

(٧٣) خسرو، سفر نامة، ص٥٦.

(٧٤) رحلة ابن جبير، ص١٨٠.

(٧٥) خسرو، سفر نامة، ص٦٥.

(٧٦) المصدر السابق نفسه، ص٦٧.

(٧٧) نهر العاصي: من أشهر أنهار بلاد الشام، وقد عرف بأسماء كثيرة منها: نهر الأرند ونهر الميماس ونهر أطاكية، ونهر حماة، ونهر حمص، ونهر الرستن، وتلك التسميات جاءت لمروره في كل تلك المدن، ويقال له العاصي، لأنه يخالف أنهار الدنيا كلها لأنه يجري من الجنوب إلى الشمال، بخلاف سائر الأنهر ومخرجه من أراضي مدينة دمشق، ويصب في بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط). ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص١٦٢؛ ج٤، ص٦٧– ٦٨.

(٧٨) خسرو، سفر نامة، ص٥٦. وانظر أيضاً مزيد من الوصف عن نهر العاصي وقنواته وتفرعاته والبساتين التي زرعت على ضفافه: ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص١٨٠ – ١٨١.

(٧٩) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص١٨٢.

(٨٠) المصدر السابق نفسه، ص١٨٠.

(٨١) النبك: قرية بذات الذخائر بين حمص ودمشق، فيها عين عجيبة باردة في الصيف صافية طيبة عذبة. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص٢٥٨.

(٨٢) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص١٨٣.

(٨٣) القصير: بلفظ تصغير قصر، وهو أول منزل لمن يريد حمص من دمشق. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص٣٦٧.

(٨٤) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص١٨٣.

(٨٥) المصدر السابق نفسه، ص١٨٤، ١٩٢ – ١٩٤.

(٨٦) أشهر هذه الأنهار نهر بردى الذي يُعد أعظم أنهر دمشق، وينبع من قرية يقال لها قنوا من كورة الزبداني على خمسة فراسخ (الفرسخ من ثلاثة إلى أربعة أميال) من دمشق مما يلي بعلبك، حيث يظهر الماء من عيون هناك، ثم يصب إلى قرية تعرف بالفيجة على فرسخين من دمشق. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص٣٧٨.

(٨٧) رحلة ابن جبير، ص١٨٤.

(٨٨) المصدر السابق نفسه، ص٢٠٩ – ٢١٠.

(٨٩) خسرو، سفر نامة، ص٥٧.

(٩٠) المصدر السابق نفسه، ص٥٩.

(٩١) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص١٧٧.

(٩٢) القارة: اسم قرية كبيرة على قارعة الطريق، وهي المنزل الأول من حمص للقاصد إلى دمشق، وكانت آخر حدود حمص وما عداها من أعمال دمشق، وأهلها كلهم نصارى، وبها عيون جارية يزرعون عليها. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص٢٩٥.

(٩٣) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص١٨٢ – ١٨٣.

(٩٤) خسرو، سفر نامة، ص٦١.

(٩٥) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص٢١٥.

(٩٦) خسرو، سفر نامة، ص٦٢.

(٩٧) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص٢١٥.

(٩٨) خسرو، سفر نامة، ص٦٥.

(٩٩) المصدر السابق نفسه، ص٦٦.

(١٠٠) المصدر السابق نفسه، ص٦٧.

(١٠١) سلوان: محلة في ربض مدينة بيت المقدس تحتها عين عذبة تسقي جنانا عظيمة. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص١٧٨.

(١٠٢) خسرو، سفر نامة، ص٦٨.

(١٠٣) المصدر السابق نفسه، ص٨٣ – ٨٤.

(١٠٤) المصدر السابق نفسه، ص٨٤ – ٨٥.

(١٠٥) المصدر السابق نفسه، ص٥٧.

(١٠٦) المصدر السابق نفسه، ص٦٠– ٦١.

(١٠٧) المصدر السابق نفسه، ص٨٤ – ٨٥.

(١٠٨) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص١٧٦.

(١٠٩) خسرو، سفر نامة، ص٥٧.

(١١٠) المصدر السابق نفسه، ص٦٤.

(١١١) الجب: هي البِئرُ مذكر، وقيل هي البِئْر التي لم تُطْوَ، وقيل هي البِئر الكثيرة الماءِ البَعيدةُ القَعْر، وقيل هي البئر الواسعة، وهي البئر غير البعيدة. ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، ج١، ط١، دار صادر، بيروت، د. ت، ص٢٤٩.

(١١٢) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص٢١٥.

(١١٣) بحيرة طبرية: بحيرة مالحة في فلسطين، يجتازها نهر الأردن (الذي ينبع من سوريا ولبنان)، ويجري جنوباً ليصب في البحر الميت، وطول هذه البحيرة (٣٠ كيلو متراً)، وعرضها (١٠ كيلو متراً). عتريس، محمد، معجم بلدان العالم، ط١، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م، ص٢٣٤. وانظر: فالح حسين، الحياة الزراعية في بلاد الشام في العصر الأموي، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٧٨م، ص٣٧. ويخالف قول محمد عتريس حول ملوحة ماء بحيرة طبرية قول ناصر خسرو، الذي يصف ماءها بأنه عذب ولذيذ. وانظر: الرواضية، المهدي عيد، الأردن في موروث الجغرافيين والرحالة العرب، وزارة الثقافة، عمان، ٢٠٠٢م، ص١٩ – ٢٠.

(١١٤) سفر نامة، ص٦٣.

(١١٥) رحلة ابن جبير، ص٢١٥.

(١١٦) مشرعة الماء: هي مورد الشاربة. الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، مختار الصحاح، تحقيق: محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، ص٣٥٤.

(١١٧) الصُّنْبور: فم القَناة، والصُّنْبور القَصَبة التي تكون في الإداوَةِ يُشْرَبُ منها، وقد تكون من حديد ورَصاص، وصُنْبُورُ الحوض مَثْعَبُه، والصُّنْبُورُ مَثْعَبُ الحوض الذي يخرج منه الماء. ابن منظور، لسان العرب، ج٤، ص٤٦٩.

(١١٨) سفر نامة، ص٥٨.

(١١٩) المصدر السابق نفسه، ص٦٥.

(١٢٠) المصدر السابق نفسه، ص٦٦.

(١٢١) المصدر السابق نفسه، ص٧٥، ٧٦.

(١٢٢) سفر نامة، ص٥٧؛ رحلة ابن جبير، ص١٨٠.

(١٢٣) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص١٧٦.

(١٢٤) المصدر السابق نفسه، ص١٧٩.

(١٢٥) خسرو، سفر نامة، ص٥٦.

(١٢٦) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص١٨٠.

(١٢٧) النارنج: شجرة مثمرة من الفصيلة السذابية، دائمة الخضرة، تسمو بضعة أمتار، وأوراقها جلدية خضر لامعة، لها رائحة عطرية، وأزهارها بيض عبقة الرائحة، ويتخذ من أزهارها ماء الزهر، ومن قشر ثمرتها تُصنع المربى. المعجم الوجيز، وزارة التربية والتعليم، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص٦١٠.

(١٢٨) الاترج: نبات معروف، ليس ببري بل يغرس غرساً، وكل شيء من شجرته ريحان، وورقها وفقاحها وثمرها، ولشجره شوك حديد، وورقها نحو من ورق الجوز، وفيه ما هو حلو، ومنه ما هو حامض، وله العديد من الفوائد الطبية. آل ياسين، محمد حسن، معجم النباتات والزراعة، ج٢، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ٢٠٠٠م، ١٥١.

(١٢٩) خسرو، سفر نامة، ص٥٧.

(١٣٠) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص١٨٠ – ١٨١.

(١٣١) المصدر السابق نفسه، ص١٨٣ – ١٩٥.

(١٣٢) خسرو، سفر نامة، ص٥٩.

(١٣٣) المصدر السابق نفسه، ص٦٠.

(١٣٤) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص٢٠١.

(١٣٥) خسرو، سفر نامة، ص٦٤.

(١٣٦) المصدر السابق نفسه، ص٦٥.

(١٣٧) خسرو، سفر نامة، ص٨٤، ٨٦.

(١٣٨) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص٢١٥.

(١٣٩) المصدر السابق نفسه، ص٢١٨.

(١٤٠) خسرو، سفر نامة، ص٥٧.

(١٤١) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص١٨٤.

(١٤٢) جبيل: مدينة تقع على الساحل اللبناني بين طرابلس وبيروت، وهي من الأقضية البعيدة والعالية التابعة لجبل لبنان. الجوهري، جغرافية العالم الإسلامي، ص١٢١.

(١٤٣) صيدا: مدينة كبيرة على ساحل البحر، تبعد عن بيروت جنوباً بنحو (٤٥) كيلو متراً، وعن صور شمالاً بنحو (٤٠) كيلو متراً، وتقع في سهل ساحلي شديد الخصوبة وافر المياه، ويحيط بالمدينة من الشرق والجنوب والشمال الشرقي بساتين غنية بالفواكه معظمها من البرتقال والليمون والموز، وكان يزرع فيها في العصور الوسطى قصب السكر وأشجار النخيل، ويتزود سهل صيدا بثلاثة نهيرات تنبع من الجبال الواقعة إلى شرقيه مباشرة هي نهر الأولي في الشمال سنيك ونهر الزهراني في الجنوب، بالإضافة إلى مياه العيون. للمزيد انظر: سيد عبد العزيز سالم، تاريخ مدينة صيدا في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٣م، ص٩، ١٠، ١٢.

(١٤٤) خسرو، سفر نامة، ص٥٩، ٦٠.

(١٤٥) طبرية: قصبة بلاد الأردن بالشام، تقع في أصل جبل على بحيرة جليلة عذبة يخرج منها نهر الأردن المشهور، وقد بنى هذه المدينة طيباريوس أحد ملوك الروم، ونسبت إليه، فعربتها العرب حين فتحوها فقالوا: طبرية. الحميري، الروض المعطار، ص٣٨٥. وانظر: المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٥٠؛ الرواضية، الأردن في موروث الجغرافيين والرحالة العرب، ص١٩ – ٢٩.

(١٤٦) خسرو، سفر نامة، ص٦٣ – ٦٤.

(١٤٧) السَّذَاب: جنس من نباتات طبية من الفصيلة السذابية. المعجم الوجيز، ص٣٠٧.

(١٤٨) خسرو، سفر نامة، ص٦٦.

(١٤٩) الحور: نبات زهري، له العديد من الفوائد العلاجية والصحية، منها أنه متى شرب من ثمره مثقال نفع من عرق النسا وتقطير البول، كما له فوائد صحية للنساء عند الولادة وبعدها، وعصارة ورقه متى فترت وقطرت في الأذن نفع من ألمها، وثمره إذا دق وخلط بعسل واكتحل به أبرأ الغشاوة في العين. الرازي، أبو بكر محمد بن زكريا (ت: ٣١٣هـ)، الحاوي في الطب، ج٦، تحقيق: هيثم خليفة طعيمي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م، ص١٠٩.

(١٥٠) خسرو، سفر نامة، ص٦٧، ٨٣.

(١٥١) السُّمَّاق: ثمر نبات شجرة تنبت في الصخور، طولها نحو من ذراعين، وفيها ورق طويل، لونه إلى حمرة الدم، مُشَرَّف الأطراف، على هيئة المنشار، وله ثمر يشبه العناقيد كثيف، وفي قشر الحب المنفعة، وهذه الشجرة تقبض وتجفف، فلذلك صاروا يستعملون نوعًا منها في دباغة الجلود، ويسمونه سُمَّاق الدبَّاغين، ويستخدم السماق كدواء بعد أن يجفف، كما يستعمل كمشهِّي للطعام لحموضته، ومنه نوعين: خُرَاسانيّ، وشاميّ، وهو أصغر من

الخُراسانيّ، وأحمر، ويصلح لأغراض طبية كثيرة. الملك المظفر، يوسف بن عمر بن علي بن رسول (ت: ٦٩٤هـ)، المعتمد في الأدوية المفردة، صححه وفهرسه: مصطفى السقا، دار القلم، بيروت، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ص٢٩٨.

(١٥٢) خسرو، سفر نامة، ص٨٤.

(١٥٣) الخرتوت: يبدو أنه من النباتات الطبية التي استعملت في ذلك الحين، ولم أجد له تعريف في كتب الطب والأعشاب.

(١٥٤) خسرو، سفر نامة، ص٦٢.

(١٥٥) الرَّند: شجر عظام، له ورق طِوال، وله لبّ يستعمل كدواء، وورقه طيب الريح، يقع في العِطْرية، ويقال لثمره غار، والدَّهْمَسْت، وأهل الشام يسمونه الرَّند، وله الكثير من الفوائد الصحية. للمزيد انظر: الملك المظفر، المعتمد في الأدوية المفردة، ج٢، ص٢٧٥ – ٢٧٦.

(١٥٦) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص٢٠٩ – ٢١٠.

(١٥٧) المصدر السابق نفسه، ص١٨٢.

(١٥٨) عن تلك الزلازل انظر: الخالدي، خالد يونس، الزلازل في بلاد الشام (من القرن الأول الهجري إلى القرن الثالث عشر الهجري / القرن السابع إلى القرن التاسع عشر الميلادي)، مجلة الجامعة الإسلامية، المجلد (١٣)، العدد (١)، غزة، يناير ٢٠٠٥م، ص٦٨ — ٩٢.

(١٥٩) خسرو، سفر نامة، ص٦٦.

(١٦٠) المصدر السابق نفسه، ص٦٤.

(١٦١) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص٢١٠.

(١٦٢) المصدر السابق نفسه، ص٢١٥.

المصادر والمراجع:

أولاً:- المصادر:

-ابن جبير، محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي البلنسي (ت: ٦١٤هـ/ ١٢١٧م)، رحلة ابن جبير، دار الكتاب اللبناني، بيروت، د. ت.

-الحميري، محمد بن عبد المنعم (ت: أواخر القرن ٩هـ / أواخر القرن١٥م)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، ط٢، مؤسسة ناصر للثقافة- مطابع دار السراج، بيروت، ١٩٨٠م.

-خسرو، ناصر خسرو علوي (توفى بعد سنة ٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م)، سفر نامة، ط٢، ترجمة: يحيى الخشاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣م.
-ابن خلدون، عبد الرحمن (٨٠٨هـ / ١٤٠٥م)، المقدمة، دار الجيل، بيروت، د. ت .
-ابن خلكان، أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت: ٦٨١هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج٣، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٠٠م.
-الدمشقي، ابن ناصر الدين شمس الدين محمد بن عبد الله القيسي، توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي، ج١، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٣م.
-الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر (ت: ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م)، مختار الصحاح، تحقيق: محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.
-الرازي، أبو بكر محمد بن زكريا (ت: ٣١٣هـ)، الحاوي في الطب، ج٦، تحقيق: هيثم خليفة طعيمي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.
-السمعاني، عبد الكريم بن محمد بن المنصور التميمي المروزي (ت: ٥٦٢هـ)، الأنساب، ج١، تحقيق: عبد الرحمن العلمي، بيروت، ١٩٨٠م.
-الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (ت: ٥٠٥هـ/ ١١١١م)، إحياء علوم الدين، ج٢، دار المعرفة، بيروت، د. ت.
-القلقشندي، أحمد بن علي (ت: ٨٢١هـ / ١٤١٨م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج٤، تحقيق: يوسف علي طويل، ط١، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٧م.
-المقري، أحمد بن محمد المقري التلمساني (ت: ١٠٤١هـ)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٢، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر ، بيروت، ١٣٨٨هـ.
-الملك المظفر، يوسف بن عمر بن علي بن رسول (ت: ٦٩٤هـ)، المعتمد في الأدوية المفردة، صححه وفهرسه: مصطفى السقا، دار القلم، بيروت، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.
-ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (ت: ٧١١هـ / ١٣١١م)، لسان العرب، ج١، ط١، دار صادر، بيروت، د. ت .
-ياقوت الحموي، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (ت: ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م)، معجم البلدان، ج٥، دار الفكر، بيروت، د. ت.

ثانياً:- المراجع والدوريات:

–أحمد وصفي زكريا، المشاهد وآثار في بلاد الشام، ط١، دار ومؤسسة رسلان، دمشق، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.
–بك، أمين واصف، معجم الخريطة التاريخية للممالك الإسلامية، تحقيق: أحمد زكي باشا، دار المصري للطباعة، القاهرة، د. ت.
–الجوهري، يسري وآخرون، دراسات في جغرافية العالم الإسلامي، دار الجامعات المصرية، الإسكندرية، ١٩٧٩م.
–جنيدل، سعيد بن عبد الله، معجم الأمكنة الواردة ذكرها في صحيح البخاري، دار الملك عبد العزيز، الرياض، ١٤١٩هـ .
–الخالدي، خالد يونس، الزلازل في بلاد الشام (من القرن الأول الهجري إلى القرن الثالث عشر الهجري / القرن السابع إلى القرن التاسع عشر الميلادي)، مجلة الجامعة الإسلامية، المجلد (١٣)، العدد (١)، غزة، يناير ٢٠٠٥م.
–درادكة، صالح موسى، دراسات في الجغرافيا التاريخية لبلاد الشام، ط١، مطبعة السفير، عمّان، ٢٠١١م.
–الدفاع، علي بن عبد الله، رواد علم الجغرافية في الحضارة الإسلامية، ط٢، مكتبة التوبة للنشر (ب. د)، ١٩٩٣م.
–الرواضية، المهدي عيد، الأردن في موروث الجغرافيين والرحالة العرب، وزارة الثقافة، عمّان، ٢٠٠٢م.
–سيد عبد العزيز سالم، تاريخ مدينة صيدا في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٣م.
– طقوش، محمد سهيل، تاريخ السلاجقة في بلاد الشام (٤٧١ – ٥١١هـ/ ١٠٧٨– ١١١٧م)، ط٣، دار النفائس للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.
–عتريس، محمد، معجم بلدان العالم، ط١، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.
–العوفي، محمد سالم، العلاقات السياسية بين الدولة الفاطمية والدولة العباسية في العصر السلجوقي (٤٤٧– ٥٦٧هـ/١٠٥٥–١١٧١م)، (د. ن)، الرياض، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
–فالح حسين، الحياة الزراعية في بلاد الشام في العصر الأموي، الجامعة الأردنية، عمّان، ١٩٧٨م.
–فلسطين في نهاية العصر العثماني من خلال الرحلة التي قام بها محمد رفيق التميمي ومحمد بهجت الكاتب، ولاية بيروت، ج٢، دراسة وتحقيق: زهير عبد اللطيف غنايم، ومحمد عبد الكريم محافظة، ط١، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع، أربد، ٢٠٠١م.
–فهيم، حسين محمد، أدب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة (١٢٨)، الكويت، يونيو ١٩٨٩م.

–الليث، رضوان أحمد مصلح، الحياة العلمية في بلاد الشام خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

– محمد مؤنس عوض، الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، ط١، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ١٩٩٥م.

– المعجم الوجيز ، وزارة التربية والتعليم، القاهرة، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

– موستراس، المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية، ترجمة وتعليق: عصام محمد الشحادات، ط١، دار ابن حزم، بيروت، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

– آل ياسين، محمد حسن، معجم النباتات والزراعة، ج٢، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ٢٠٠٠م.